الخطاب الحجاجي

بين العموم الشائع والخصوص الذاتي

لامية السموأل بن عاديا أنموذجًا

إعداد

دكتور

محمد عبد الفتاح إبراهيم النجار

أستاذ البلاغة والنقد المساعد في كلية اللغة العربية بإيتاي البارود

جامعة الأزهر الشريف – جمهورية مصر العربية

١٤٤٤ هـ- ٢٠٢٣م

الخطاب الحجاجي بين العموم الشائع والخصوص الذاتي
(لامية السموأل بن عاديا أنموذجًا)

محمد عبد الفتاح إبراهيم النجار

قسم البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، جامعة الأزهر، مصر.

البريد الالكتروني: dr.mohammed.elnggar@gmail.com

الملخص:

يكشف هذا البحث عن كيفية تحول الخطاب الحجاجي من العموم الشائع إلىٰ الخصوص الذاتي في البِنَىٰ التركيبية داخل النص الشعري، هذا هو محور البحث وركيزته الأولىٰ ؛ فالذاتية التي تتنافىٰ مع لغة الخطاب الحجاجي قد تحققت في هذه اللامية – موضع الدراسة – من خلال الانحراف الأسلوبي، الذي نتج عنه مبالغة في التأكيد علىٰ الذاتية للجنس كله، والذي تحول بفضل ذوبان الكيان الفردي في الكيان الجمعي؛ فالسموأل قد تحول في لاميته إلىٰ صوت أممي يعبر عن قومه ويدافع عنهم، ومن ثَّم ذاب خطابه الذاتي الفردي في الخطاب الشائع الجمعي لقبيلته، هذا بيت القصيد في هذا البحث.

والنص– موضع الدراسة – مبنيٌ علىٰ حجج كثيرة، أهمها حجة السلطة، فهي كثيرة الشيوع في النص، ولها طاقات إيحائية حجاجية هائلة ؛ وتُعد رافدًا مهمـًا من روافد الذاتية.

كما يجيب البحث عن أسئلة عديدة، من أهمها:

– ماالمقصود بخروج الخطاب الحجاجي من العموم الشائع إلىٰ الخصوص الذاتي ؟

– هل لهذه الظاهرة تأصيل في تراثنا العربي؟

- ما العلاقة بين الذاتية التي تتنافىٰ مع لغة الخطاب الحجاجي، الذي هو ضرب لما هو معروف وشائع، وبين الذاتية التي ذاب كيانها في كيان الخطاب الجمعي، وكيف تحققت هذه المعادلة ؟

- ما الآليات التي اعتمد عليها الشاعر في نصه، وأعطته جده وحداثة وألقـًا ؛ في الخروج من الذاتية إلىٰ العموم.

الكلمات المفتاحية:

الخطاب الحجاجي، لامية السموأل، الخصوص الذاتي، العموم الشائع.

The argumentative discourse between common generality and subjective specificity (Lamiyyah al-Samawal ibn Adia as a model)

Mohamed Abdel-Fattah Ibrahim Al-Najjar

Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Arabic Language, Etay Al-Baroud, Al-Azhar University, Egypt.

Email: dr.mohammed.elnggar@gmail.com

Abstract:

This research reveals how argumentative discourse shifts from common generality to self-specificity in the synthetic structures within the poetic text. This is the focus of the research and its first pillar; The subjectivity that contradicts the language of the argumentative discourse was achieved in this Lamia - the subject of the study - through stylistic deviation, which resulted in an exaggeration in emphasizing the subjectivity of the whole race, which was transformed thanks to the dissolution of the individual entity in the collective entity; Al-Samawal has transformed in his illiteracy into an international voice that expresses his people and defends them, and then his individual self-discourse melted into the common collective discourse of his tribe. This is the point of the research.

The text - the subject of the study - is based on many arguments, the most important of which is the argument of authority, which is very common in the text, and has enormous suggestive argumentative energies. Which is an important tributary of self-tributaries.

The research also answers many questions, the most important of which are:

What is meant by the departure of argumentative discourse from the common general to the subjective?

- What is the relationship between the subjectivity that is inconsistent with the language of argumentative discourse, which is a strike on what is known and common, and the

subjectivity whose entity melted into the entity of the collective discourse, and how was this equation achieved?

- What are the mechanisms that the poet relied on in his text, and gave him seriousness, modernity and elegance? In moving from subjectivity to generality.

Is this phenomenon rooted in our Arab heritage?

Keywords:

Subjective specificity - the illiteracy of al-Samawal - the al-Hajjaji discourse - the common generality).

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، خير ما يُفتَتَح به ويُختَتَم، افتتح الله عز وجل كتابه العظيم بالحمد، فقال: الحمد لله رب العالمين، وشعار أهل الجنة كما أخبر القرآن الكريم: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[سورة يونس: ١٠]فواجب أن تُسْتَهل كل مقالة بالحمد قبل استفتاحها؛ لأن الله عز وجل قد وهبنا نِعَمَهُ وأفضاله قبل استحقاقها، فياربي لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، وأصلي وأسلم علىٰ سيدنا وحبيبنا ونور قلوبنا محمد رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم صلاة تكون لنا نورًا من كل ظلمة، وهداية إلىٰ طريق الحق والرشاد.

وبعد...

فلا يزال الشعر الجاهلي محتفظًا بقيمته ورونقه عبر العصور والقرون؛ وسيظل باسطًا سلطانه علىٰ القلوب والعقول؛ نظرًا لروعة صياغته، وحُسنِ تراكيبه، وصدق عاطفته، وتنوع موضوعاته، وتعدد أغراضه،الأمر الذي جعله مثيرًا للبحث والتحليل عبر العصور، ومن ثَّم تعددت قراءاته يومًا بعد يوم، كلٌ قارئ ينظر إليه حسب ثقافته، وتوجهاته الفكرية، ومذهبه الأدبي والنقدي. وسأحاول في هذا البحث استجلاء تراثنا العربي برؤية عصرية جديدة، نقرأ فيه لامية السموأل بن عاديا قراءة حجاجية جديدة تتناسب مع مقتضيات العصر ومناهجه وآلياته.

ومما لا شك فيه أن الحجاج من المعارف الشائعة العامة التي تتنافىٰ مع خصوصية التجربة الشعرية وذاتيتها التي لا تقبل العموم، فبين تلك الثنائيتين المتضادتين تنازعتني فكرة هذا البحث التي ترتكز علىٰ كيفية تحول الخطاب الحجاجي من العموم الشائع إلىٰ الخصوص الذاتي في البِنَىٰ التركيبية داخل لامية السموأل؛ فالذاتية التي تتنافىٰ مع لغة الخطاب الحجاجي قد تحققت في هذه اللامية – موضع الدراسة – من خلال الانحراف الأسلوبي، الذي نتج عنه مبالغة في التأكيد

علىٰ الـذاتيـة للجنس كلـه، والـذي تحول بفضـــل ذوبـان الكيـان الفردي في الكيـان الجمعي؛ فـالســـموأل قـد تحول في لاميته إلىٰ صـــوت أممي يعبر عن قومه ويدافع عنهم، ومن ثَّم ذاب خطابه الذاتي الفردي في الخطاب الشـائع الجمعي لقبيلته. ولا شـــك أن هـذا التحول قـد أنتج جملـة ثرة من التـأويلات، وأفضـــي بدلالات عميقة خرجت بنا إلىٰ فضاءات رحبة، وأبعاد جديدة في استنطاق النص.

وقد حاولت في هذا البحث اســتجلاء المســوغات، والروابط، والعلاقات التي مكنت الســموأل من الخروج بتجربته الشــعرية من الخصــوص الذاتي إلىٰ العموم الشـائع،ونَصَّـبَت منه متحدثًا رسـميًا بلسـان قومه؛ فذاب كيانه الفردي في الكيان الجمعي لقبيلته.

ويهـدف هـذا البحـث إلىٰ أمور عـدة منهـا: إمـاطـة اللثـام عن الآليات الحديثة في تحليل الخطاب الشعري من خلال نص محكم النظم، دقيق البناء والتركيب كلامية الســموأل، وإذابـة الفوارق بين التنظير والتطبيق؛ فـالحجـاج وإن كـان خطـابـًا عامًا شـــائعًا؛ إلا أن طرق إجرائه متعددة، وتصـــريفاته مختلفة، والطاقات الإبداعية لكل شاعر متنوعة تأتي بجديد.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون في مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة.

المقدمة: ذكرت فيها أهمية الموضوع، والفكرة التي يقوم عليها بإيجاز،وأسباب اختياره، والدراسات السابقة، والمنهج المتبع في الدراسة إلخ.

التمهيد: اشتمل علىٰ ما يأتي :

أولاً: السموأل وبواعث الحجاج في لاميته.

ثانيا: الوزن القيمي للامية.

المبحث الأول: الخطاب الحجاجي بين العموم والخصوص.

المبحث الثاني: التحليل الحجاجي للامية.

ثم ختمت بحثي بخاتمة رَصدتُ فيها أهم ما توصلت إليه من نتائج، وما اقترحته من توصيات.

وقد اعتمدت في هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي، لتناسبه مع هذا النوع من الدراسات التداولية.

أما عن الدراسات السابقة فلم أعثر علىٰ دراسة خاصة تناولت لامية السموأل من الجانب الحجاجي، غير أن هناك بعض الدراسات التي تناولت هذه القصيدة من جوانب أخرىٰ، وكان من أهمها:

١- **لاميه السموأل الغساني دراسة سياقية في ضوء المنهج التاريخي**، إعداد الدكتور: وليد أحمد سمير السيد، بحث منشور في مجلة كلية الآداب جامعة بنها، العدد الأربعون عام ٢٠١٥م.

٢- **شعر السموأل دراسة بنيوية تكوينية**، رسالة ماجستير من إعداد الباحث: ريازي نور الهدىٰ، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر بسكرة.

٣- **القصيدة البديعة في الشعر العربي القديم لامية السموأل أنموذجًا**، إعداد الدكتور: عبد الله محمد القرارعة والدكتور: أحمد عبد الرحمن الذنيبات، وهو بحث منشور في مجله كلية الآداب جامعة القاهرة العدد السابع والسبعون عام ٢٠١٧م.

ومن الجدير بالذكر أن اختياري للامية السموأل بن عاديا ـــــ اليهودي الذي عاش في العصر الجاهلي قبل الإسلام ـــــ قد أتي منسجمًا مع طبيعة الفكرة الأخلاقية الإسلامية التي نهضت علىٰ تقدير المشترك الاخلاقي الباقي من الملل السابقة، الأمر الذي تجلىٰ في حياة النبي صلىٰ الله عليه وسلم مبكرًا عندما " انْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّىٰ أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّىٰ. وَهُوَ ابْنُ عَمِّ

خَدِيجَةَ، أَخِي أَبِيهَا. وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ وَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالْعَرَبِيَّةِ مَا شَاءَ الله أَنْ يَكْتُبَ وَكَانَ شَيْخا كَبِيرا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: أَيْ عَمِّ اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ. قَالَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَىٰ؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللّهِ صلىٰ الله عليه وسلم خَبَرَ مَا رَآهُ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَىٰ مُوسَىٰ. يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعا، يَا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ. قَالَ رَسُولُ اللّهِ صلىٰ الله عليه وسلم: "أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟" قَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرا مُؤَزَّر"[1]

كما أن الإسلام لم يمنع الاحتفاء بسِيَر السابقين من أهل الملل السابقة، وهو ما يظهر بوضوح في عنايه الكتاب العزيز بقصص أنبياء بني اسرائيل علىٰ وجه التعيين، ومن يتابع السيرة النبوية يلحظ عناية النبي صلىٰ الله عليه وسلم بتقدير ما بقي من المنظومة الأخلاقية الكريمة التي كانت شائعة في الجاهلية، فنراه يطلق سراح سفانة بنت حاتم الطائي بعدما كانت من السبايا، ويأمر أصحابه: أن خلوا عنها؛ فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق، وأمرهم بإخلائ سبيل من معها كرامة لها ولأبيها.

كما استقر في حضارتنا الإسلامية أنه يجب علينا أن نفحص ما ورد إلينا من الأمم السابقه، فما كان منها موافقًا للحق قبلناه منهم، وسُررنا به، وشكرناهم عليه، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه، وحذرنا منه وعذرناهم.

كما أن مدونة النصوص الإسلاميه قد أبقت عددًا كبيرًا من النصوص الأخلاقية الموروثة عن الجاهلية؛ تقديرًا لما تحتوي عليه من قيم أخلاقية معتبرة في التصور

(١) بعض حديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه في كتاب بدء الوحي، باب كتاب كيف كان بدء الوحي إلىٰ الرسول صلىٰ الله عليه وسلم " حديث رقم (٣) ص ٩ دار ابن كثير دمشق الطبعة الأولىٰ ١٤٣٢هـ - ٢٠٠٢م.

الإسلامي كقول النبي صلىٰ الله عليه وسلم: "إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولىٰ: إذا لم تستح فاصنع ما شئت"[1]

لكل هذه الأسباب وغيرها مما يضيق المجال عن ذكره، فليس ثَمَّة باب لدخول الشاغبين علىٰ اختيار هذه القصيدة بعينها نموذجًا تطبيقيا لفحص العلاقة بين العموم الشائع والخصوص الذاتي من منظور حجاجي.

وبعد، فلا أزعم أنني جئت بالطريف المبتكر، ولا بلغت الكمال في هذا البحث، بل هو جهد المقل، وخطوة علىٰ الطريق، فإن أصاب هذا البحث مرماه فذلك ما سعيت إليه مجتهدًا، وإن أخطأ هدفه فيُعرَضُ له التقويم، ويناله الإصلاح والتهذيب؛ لأن العلم لا يقف عند تصور باحث مهما أوتي عِلمًا وفهمًا، ولا يحده عصر من العصور، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

❁❁❁❁❁

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه في كتاب الأدب، باب: إذا لم تستح فاصنع ما شئت حديث رقم: (٦١٢٠) ص ٢٨٦.

التمهيد

أولًا: السموأل وبواعث الحجاج في لاميته:

هو السموأل بن غريض بن عاديا بن جيا، عاش في العصر الجاهلي قبل الإسلام، في القرن السادس الميلادي، وتوفي عام ٥٦٠ق م، اشتُهِرَ في الجاهلية بالوفاء والكرم حتىٰ صار مضرِبًا للمثل في هذا الباب؛ فقيل: " أوفىٰ من السموأل" ويعود السر في ذلك لقصة الوفاء المشهورة التي دارت بينه وبين امرئ القيس، فعندما أراد أمرؤ القيس الذهاب إلىٰ بلاد الروم طالبًا دعم قيصر الروم ونجدته لاسترجاع مملكته، حينها أودع السموأل دروعه خشية أن تُسرَق منه في طريق سفره، لكنه مات في طريق عودته، وقد علم الحارث بن أبي شمر الغسَّاني بخبر وفاة امرئ القيس، فذهب في جيش يطلب من السموأل الدروع، فتحصنّ السَّموأَل منه، ورفض تسليمه الدروع، في ذلك الحين استطاع الحارث الغساني أن يقبض علىٰ ابن السموأل الذي كان خارج الحصن عائدًا من رحلة صيد، وجاء به إلىٰ الحصن علىٰ مرأىٰ من أبيه وقال له: إني قد أسرت ابنك فادفع إليَّ الدروع وإلا قتلته، فرفض السَّموْأَل قائلا: لست أخفر ذمتي، ولا أسلم جاري، وعندما يئس الحارث منه قتل الغلام وانصرف، وظل السَّموْأَل محافظاّ علىٰ الدروع حتىٰ سلمها إلىٰ ورثة امرئ القيس، وبعد هذه الحادثة صار السموأل مثالًا للوفاء، فقالت العرب: "أوفىٰ من السموأل".[1]

(١) ينظر: تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام: إسرائيل ولفنسون: ٢٦ مطبعة الاعتماد، مصر، ١٣٤٥هـ - ١٩٢٧م. وديوان السموأل تحقيق: عيسىٰ سابا، من ص ٦٧: ٧٣، طبعة دار بيروت، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.

وقد أجمعت كتب الأدب والتراجم علىٰ أنه كان يهوديًا[1]، كما أجمعت أيضًا علىٰ أنه كان صاحب حصن الأبلق الموجود في تيماء بين الحجاز والشام[2]/ وهو حصن حصين ضُرِبَ به المثل في القوة والمنعة، فقد قال العرب: "تمرد مارد وعزَّ الأبلق"[3] وقد اشتُهِر هذا الحصن شهرة واسعة، كما افتخر به السموأل كثيرًا في لاميته، ومن ذلك قوله:

لَنا جَبَلٌ يَحْتَلُّه مَنْ نُجِيره ... مُنِيفٌ، يَردُّ الطَّرْفَ وهْوَ كَلِيلُ

رَسَا أَصْلُه تَحْتَ الثَّرَىٰ، وسَما بِهِ ... إِلىٰ النَّجْمِ فَرْعٌ لا يُنال طَويل

هو الأَبْلَقُ الفَرْدُ الذي سارَ ذِكْرُهُ ... يَعِزُّ علىٰ مَنْ رَامهُ فيَطُولُ

كما ذكره كثير من الشعراء الجاهليين في قصائدهم، من ذلك قول الأعشىٰ:

بالأَبْلَقِ الفَرْدِ مِنْ تَيْمَاءَ مَنْزِلُه ... حِصْنٌ حَصِينٌ وجَارٌ غَيْرُ غَدَّار[4]

---

(١) ينظر: شرح ديوان الحماسة: أبو علىٰ أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي: ١/ ١١٠، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م، وطبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي: ٢٧٩ قرأه وشرحه: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، وتاريخ الأدب العربي كارل بروكلمان:١/ ١٢١ ترجمة عبد الحليم النجار، دار المعارف القاهرة، الطبعة الخامسة ١٩٨٣م.

(٢) معجم البلدان: ياقوت الحموي١/ ٧٥ ت: فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) مجمع الامثال: أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني:١/ ٤٣، ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية بيروت.

(٤) من قصيدة مشهورة للأعشىٰ، اختلفت روايتها بالزيادة والنقص، والتقديم والتأخير، وقد وردت في الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني: ٨/ ٢٧٩، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولىٰ ١٤١٥ هـ، ومجمع الأمثال ٢: ٢٧٦- ٢٧٧، وكان من أبياتها:

كُنْ كَالسَّمَوْأَلِ إِذْ طَافَ الْهُمَامُ بِهِ ... فِي جَحْفَلٍ كَسَوَادِ اللَّيْلِ جَرَّارِ

جَارُ ابن حيّا لمن نالتْهُ ذمّتُهُ ... أَوفىٰ وَأَمنع منْ جار ابن عمَّار

وقد كان السموأل معنيًا في شعره بالحديث عن مكارم الأخلاق والحث علىٰ التحلي بها، وما أروع ما كتب الشيخ محمد حسن آل ياسين عن السموأل في مقدمة تحقيق ديوانه، وكان مما قال: "لقد كان السموأل متجهًا بكل شعوره وملكاته وعواطفه نحو الخير المحض والدعوة إليه، ونحو تركيز الخصال الفضلىٰ والتباهي بها، ونحو خوف الله والخشية من عقابه، ونحو الندم علىٰ ما سلف منه من ذنوب وهفوات، ونحو التفاخر بما يطوي عليه جوانحه من خلالٍ فذةٍ تضم الكرم والحِلم والشجاعة والوفاء والشهامة والمروءة. هكذا كان السموأل في شعره معنيًا بتسجيل هذه المعاني المثالية التي ندر من شعراء عصره من حاول تسجيلها والعناية بها بالشكل الصحيح. ومن هنا استحق هذا الشاعر الكبير أن يبقىٰ خالدًا علىٰ مَرِّ الأجيال والعصور، يردد التاريخ فيها أغرودة المَثَل العربي الشهير: أوفىٰ من السموأل"[1].

وشعر السموأل علىٰ الرغم من قلة عدد قصائده إلا أنه يدل علىٰ شاعرية متفردة، فألفاظه جزلة، وعباراته سلسة بعيدة عن التكلف وحوشي الكلام، ومعانيه سامية، لا يعرف الغزل الفاحش ولا يلتفت للوقوف علىٰ الاطلال كما كان يفعل جل شعراء عصره، " فمن يطلع علىٰ شعره يحس شرفًا وإباء، فلا يجد فيه روح تكسب ومدح

بالأَبْلَقِ الْفَرْدِ مِنْ تَيْمَاءَ مَنْزِلُهُ ... حِصْنٌ حَصِينٌ وَجَارٌ غَيْرُ غَدَّارِ
إِذْ سَامَهُ خُطَّتَى خَسفٍ فقالَ لهُ ... قل ما تشاء فإنى سامعٌ حَار
فَقَالَ ثُكْلٌ وَغَدْرٌ أَنْتَ بَيْنَهُمَا ... فَاخْتَرْ وَمَا فِيهِمَا حَظٌّ لِمُخْتَارِ
فشكَّ غيرَ طويل ثُمَّ قالَ لَهُ ... اقتل أسيرك إنى مانعٌ جاري

(١) ديوان السموأل صنعة أبي عبد الله نفطويه، بتحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين ص: أ، ب مطبعة بغداد ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م.

تقيه وكذبًا، ولكنه يشعر بوثبة اندفاع إلىٰ المجد والفخر، شيمة العربي في صحرائه التي تبعث روح العزة والتباهي بالحسب والنسب وحفظ الذمام، وبسطه اليد"[1]

وبواعث الحجاج عند السموأل كثيرة، من أبرزها الباعث الذي دفعه لنظم لاميته ـــ موضع الدراسة ـــ وهو الرد علىٰ المرأة التي عيرته بقلة عدد قبيلته وورد ذكرها في قوله:

وقائِلَةٍ: ما بالُ أُسْرَةِ عادِيا ... تَبارَىٰ، وفِيهِمْ قِلَّةٌ وخُمُولُ

تُعَيِّرُنا أَنَّا قَلِيلٌ عَدِيدُنا ... فقلتُ لها: إِنَّ الكِرَامَ قَلِيلُ

فقد وضع السموأل هذا القول نصب عينيه، وجعل صداه يتردد في أذنيه، فأخذ يحاجها ويبين لها فساد قولها، ويكشف لها عن حقيقة غائبة عنها، وهي أن العبرة لم تكن في يوم من الأيام بكثرة العدد، فقبيلته مع قلة عددهم غالبون قاهرون لأعدائهم، حامون لجيرانهم، الأمر الذي يعجز عنه من هم أكثر منهم عددا، فغيرهم يعيشون غير آبهين بذلة جيرانهم وهوانهم علىٰ الناس، ثم أخذ يعدد لها ملامح عزتهم وأمارات أصالتهم، ويظهر لها الأسباب الحقيقية التي جعلت لقومه السيادة والريادة مثل العفة، والكرم، وحماية الجار، وامتداد الأصل، وصفاء النسب، فحضور المرأة المعيرة في هذه اللامية كان هو المحرك الأساسي، والدافع لنظم السموأل هذه القصيدة، فلولا تعيير هذه المرأة للسموأل ما كانت هذه اللامية.

ثانيًا: الوزن القيمي للامية في التراث العربي:

تُعدُ لامية السموأل من عيون الشعر العربي، ومن أروع ما قيل في الفخر علىٰ مَرَ العصور بالرغم من قلة عدد أبياتها، وقد كانت منهلًا عذبًا للنحويين والبلاغيين، يستقون منه شواهدهم للدلالة علىٰ صحة مذاهبهم وقواعدهم، فنجد النحويين قد

(١) مقدمة تحقيق ديوان السموأل: تحقيق عيسىٰ سابا (أ)

استشهدوا ببعض أبياتها للدلالة علىٰ صحة ما ذهبوا إليه، ومن ذلك استشهاد بعضهم بقوله:

سَلي إِن جَهِلتِ الناسَ عَنّا وَعَنهُمُ فَلَيسَ سَواءً عالِمٌ وَجَهولُ

للدلالة علىٰ جواز تقديم خبر ليس علىٰ اسمها، فقد تقدم في البيت السابق خبر ليس، وهو قوله: (سواء) علىٰ اسمها، وهو (عالم)، وفي هذا رد علىٰ المبرد والكوفيين ومن ذهب إلىٰ منع تقديم خبر ليس علىٰ اسمها[1].

كما استشهد النحويون أيضا بقول السموأل:

إِذا المَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِن اللُّؤْمِ عِرْضَهُ فَكُلُّ رِداءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ

علىٰ أن كلمة (كل) حكمه الإفراد والتذكير، وأن معناها يكون بحسب ما تُضاف إليه، من أجل ذلك جاء الضمير في البيت السابق مفردًا مذكرًا[2].

ولم يقتصر الاستشهاد بشعره علىٰ النحويين فحسب، بل استقىٰ البلاغيون من هذه اللامية أيضًا ما يوضحون به قواعدهم، فقد استشهدوا للاستطراد بقوله:

وإِنَّا لَقَوْمٌ ما نَرَىٰ القَتْلَ سُبَّةً إِذا ما رَأَتْهُ عامِرٌ وَسُلُولُ

وقد ذهب الحاتمي إلىٰ أن السموأل أول من ابتدع هذا الفن، ثم تعاور الشعراء بعده هذا المعنىٰ[3]، وأكد هذا الرأي ابن رشيق القيرواني في العمدة، فقد ذكر أن

---

(١) يراجع في ذلك: شرح ألفية ابن مالك لابن الناظم:١٣٥ت: د عبد الحميد السيد، دار الجيل، بيروت، وشرح شواهد المغني لجلال الدين السيوطي: ٤/ ٢٠٧ ت: محمد محمود الشنقيطي، مكتبة الحياة بيروت، وشرح ابن عقيل علىٰ ألفية ابن مالك: ١/ ٢٧٣ ابن عقيل، دار الفكر بيروت، الطبعة العاشرة.

(٢) ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري: ٢٥٨، ت: د/ مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، بيروت، الطبعة الرابعة.

(٣) يراجع: حلية المحاضر في صناعة الشعر لأبي علي الحاتمي: ١/ ١٦٤ ت: د/ جعفر الكتاني، دار الرشيد، العراق ١٩٧٩م.

السموأل أول من نطق به[1]، أن السموأل أول من نطق بالاستطراد، كما ذكر ابن أبي الإصبع المصري في كتابه تحرير والتحبير عند تعليقه علىٰ البيت السابق قوله:" وأحسب أن أول من استطرد بالهجاء السموأل بن عادياء"[2].

كما استشهد البلاغيون من لامية السموأل علىٰ التكميل بقوله:

وما ماتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ ولا طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كانَ قَتِيلُ

واستشهدوا أيضًا علىٰ السلب والإيجاب بقوله:

وَنُنكِرُ إِن شِئنا عَلىٰ الناسِ قَولَهُم وَلا يُنكِرونَ القَولَ حينَ نَقولُ

وهكذا كانت لامية السموأل موردًا عذبًا للنحويين والبلاغيين يستقون من أبياتها شواهد مضيئة أسهمت بنصيب وافر في تأصيل هذين العلمين الجليلين.

❁❁❁❁❁

(١) يُنظَر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق القيرواني: ١/ ٦٢٨ ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، الطبعة: الخامسة، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م.

(٢) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الإصبع العدواني:١٣٢، نشر المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر.

المبحث الأول

(الخطاب الحجاجي بين العموم والخصوص)

مفهوم الخطاب الحجاجي:

الحجاج لغة: مصدر الفعل حاجج، والحجة البرهان، وقيل الحجة ما دُوفِع به الخصم، والحجَة: الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة، والتحاج: التخاصم ورجل محجاج أي جَدِلٌ، والتحاج التخاصم، واحتج بالشيء اتخذه حجة(١)" وحاججت فلانا فحججته أي غلبته بالحجة(٢) وقد ورد لفظ الحجاج في القرآن الكريم في أكثر من موضع: كقوله تعالىٰ: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦﴾ [سورة آل عمران:٦٦]، وقوله جل وعلا: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ ﴾ [سورة الأنعام:٨٠]، وقوله جل في علاه: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ٤٧﴾ [سورة غافر:٤٧]، وقوله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ١٦﴾ [سورة الشورى:١٦].

---

(١) لسان العرب: جمال الدين محمد بن مكرم أبو الفضل بن منظور مادة (ح ج ج): ٣/ ١١٥، دار صادر بيروت الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٠م.

(٢) مقاييس اللغة: ابن فارس: مادة: (ح ج ج): ٢/ ١٨٠، ت: عبد السلام هارون، الطبعة الأولىٰ دار الجيل بيروت ١٩٩١م.

فالحجاج هو تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلىٰ نتيجة معينة، وهو يتمثل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، وبعبارة أخرىٰ يتمثل في إنجاز متواليات من الأقوال بعضها بمثابة الحجج اللغوية، وبعضها الآخر بمثابة النتائج التي تستنتج منها، فكون اللغة لها وظيفة حجاجية ؛ يعني أن التسلسلات الخطابية محددة لا بواسطة الوقائع المعبرة عنها داخل الأقوال فقط، ولكنها محددة أيضاً وأساسًا بواسطة بنية الأقوال نفسها، وبواسطة المواد اللغوية التي تم توظيفها وتشغيلها[1]

ومما لا شك فيه أن لفظ الحجاج قد اقترن في التراث العربي بلفظ الجدل، والبرهان، والاستدلال، كما تداخل مع بعض المصطلحات البلاغية كالمذهب الكلامي، مع أن حد الحجاج تداولي، وله طابعه الفكري والمقامي والاجتماعي؛ إذ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة، ومطالب إخبارية، وتوجهات ظرفية، ويهدف إلىٰ الاشتراك جماعياً في إنشاء معرفة عملية إنشاءً موجهاً بقدر الحاجة، وهو أيضاً جدلي ؛ لأن هدفه إقناعي قائم بلوغه علىٰ التزام صور استدلالية أوسع وأغنىٰ من البنيات البرهانية الضيقة[2]

الخطاب الحِجَاجي بين المرجعية العربية والتقعييد الغربي؛

اختص الله عز وجل الأمة العربية بفصاحة اللسان وقوة الحجة والبرهان، ومن يتفحص البلاغة العربية في القرون الأولىٰ من الهجرة يجد فيها لمحات مضيئة

---

(١)ينظر: اللغة والحجاج: د.أبو بكر العزاوي:، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع،، لبنان د.ط ٢٠٠٩م، ص (١٩).

(٢) ينظر: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية: د. عبد الله صولة: (١٥:١٦).جامعة منوبة، كلية الآداب، تونس، ط٢٠٠١م،

وإشـارات واضـحة تبرزاهتمام البلاغيين والنقاد في ذلك الوقت بالجانب الإقناعي والحجاجي، ومن أبرز هؤلاء مؤسـس البيان العربي: الجاحظ، فعنما تحدث عن البيان قال: " هو اسـمٌ جامعٌ لكل شـيء كَشَـف لك قناع المعنىٰ، وهتك الحجاب دون الضـمير؛ حتىٰ يُفضي السـامع إلىٰ حقيقته، ويهجم علىٰ محصـوله كائنًا ما كان ذلـك البيـان، ومن أي جنسٍ كـان الـدليـل؛ لأن مـدار الأمر والغـايـة التي يَجري إليها القائل والسـامع، إنما هي الفَهم والإفهام، فبأي شـيء بلغتَ الإفهام وأوضـحتَ عن المعنىٰ، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[1]؛ فالفهم والإفهام عنده هو الهدف من أي حديث، والغاية التي ينتهىٰ إليها أي نقاش.

وقـد أشـار الجـاحظ في أكثر من موضـع من كتـابـه البيان والتبيين إلىٰ الجانب الحجاجي والإقناعي، من ذلك قوله: " قال بعض أهل الهند: جماع البلاغة البصـر بالحجة، والمعرفة بمواضـع الفرصـة... ومن البصـر بالحجة، والمعرفة بمواضـع الفرصة، أن تدع الإفصاح بها إلىٰ الكناية عنها، إذ كان الإفصاح أوعر طريقة، وربما كان الإضـراب عنها صـفحًا أبلغ في الدرك، وأحق بالظفر"[2] فقد ذكر الجاحظ في النص السـابق جانبًا من حديث أهل الهند عن البلاغة، كما ألمح إلىٰ ضـرورة حسن اختيـار الحجـة المنـاسـبـة للمقـام، ومثـل لـذلـك بضـرورة اللجوء للكنـاية إذا كان التصريح غير ملائم للظفر بالغاية.

كمـا أشـار الجـاحظ إلىٰ توظيف الحجـاج في الجـانب الديني والدعوي، عندما عرض للسـؤال الذي وُجِهَ لعمرو بن عبيد عن ماهية البلاغة فأجاب بقوله: "فكأنك

(١) البيـان والتبيين، أبو عثمـان عمرو بن بحر الجـاحظ: ١/ ٧٦ ت: عبـد السـلام هـارون، مكتبة الخانجي ،القاهرة ،ط. ١٩٩٨،٧م.

(٢) السابق: ١/ ٨٨

إنما تريد تخير اللفظ في حسن الإفهام، قال: نعم قال: إنك إن أوتيت تقرير حجة الله في عقول المكلفين، وتخفيف المؤونة علىٰ المستمعين، وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين، بالألفاظ المستحسنة في الآذان، المقبولة عند الأذهان؛ رغبة في سرعة استجابتهم، ونفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة، علىٰ الكتاب والسنة، كنت أوتيت فصل الخطاب واستوجبت علىٰ الله جزيل الثواب"[1] فقد أشار الجاحظ في النص السابق إلىٰ الشروط الواجب توافرها في الحجة، وما يجب أن يتحلىٰ به المحاجج من أخلاقيات، فلا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب الفلج إلا بالحق، ولا يستعين بالخلابة، ولا يستعمل المواربة، ولا يهمز ولا يلمز.[2]

كما أشار الجاحظ إلىٰ بلاغة الحجاج عندما عرض لتفسير البلاغة عند ابن المقفع، حينما سُئِلَ ما البلاغة؟ قال: البلاغة اسم جامع لمعان تجرىٰ في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الإستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جواباً، ومنها ما يكون ابتداًء، ومنها ما يكون شعرًا، ومنها ما يكون سجعًا وخطبًا"[3]

كما اعتنىٰ أبو هلال العسكري بالحجاج في كتابه "الصناعتين" فقد تحدث عنه تحت عنوان " في الاستشهاد والاحتجاج، وقال: " إنه كثير في كلام القدماء والمحدثين، وهو أحسن ما يُتعاطىٰ من أجناس صيغة الشعر، ومجراه مجرىٰ التذييل لتوليد المعنىٰ، وهو أن تأتي بمعنىٰ ثم تؤكده بمعنىٰ آخر يجري مجرىٰ

(١) البيان والتبيين: ١/ ١١٤

(٢) ينظر: السابق نفسه: ٢/ ١٧

(٣) السابق: ١/ ١١٤

الاستشهاد علىٰ الأول، والحجة علىٰ صحته"[1] فقد وضح العسكري في النص السابق المراد من الاحتجاج، كما ذكر آدابه وشروطه في قوله:"فاللّطيف من الكلام: ما تعطف به القلوب النافرة، ويؤنس القلوب المستوحشة، وتلين به العريكة الأبيّة المستصعبة، ويبلغ به الحاجة، وتقام به الحُجّة؛ فتخلص نفسك من العيب، ويلزم صاحبك الذنب، من غير أن تهيجه وتقلقه، وتستدعىٰ غضبه، وتستثير حفيظته"[2].

كما كان لشيخ البلاغيين الإمام عبد القاهر الجرجاني نصيب وافر في العناية بالحجاج، وقد تجلىٰ ذلك في أكثر من موضع من كتابيه: دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، فقد تحدث عن تأثيره وبلاغته عندما عرض لأثر التمثيل إذا جاء في أعقاب المعانىٰ حيث قال: " واعلم أنّ مما اتفق العقلاء عليه، أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلىٰ صورته، كساها أبّهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشبّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النّفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفا، وقسر الطّباع علىٰ أن تعطيها محبّة وشغفا. فإن كان مدحا، كان أبهىٰ وأفخم، وأنبل في النفوس وأعظم، وأهزّ للعطف، وأسرع للإلف، وأجلب للفرح، وأغلب علىٰ الممتدح، وأوجب شفاعة للمادح، وأقضىٰ له بغرّ المواهب والمنائح، وأسير علىٰ الألسن وأذكر، وأولىٰ بأن تعلقه القلوب وأجدر، وإن كان ذمّا، كان مسّه

(١) الصناعتين: أبو هلال العسكري: ٣٨٣، ت / علي محمد البجاوي، و محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية، بيروت. كتاب الصناعتين:

(٢) السابق: ٥١

أوجع، وميسمه ألذع، ووقعه أشده، وحدّه أحدّ،وإن كان حجابا، كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر(١).

كما وضح الإمام عبد القاهر الأسباب التي جعلت للتمثيل هذه القدرة علىٰ التأثير والإقناع، وأجملها في سببين:" الأول: أنّ أنس النفوس موقوف علىٰ أن تخرجها من خفيّ إلىٰ جليّ، وتأتيها بصريح بعد مكنّي، وأن تردّها في الشيء تعلّمها إياه إلىٰ شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتها به في المعرفة أحكم نحو أن تنقلها عن العقل إلىٰ الإحساس، وعما يعلم بالفكر إلىٰ ما يعلم بالاضطرار والطبع، لأن العلم المستفاد من طرق الحواسّ أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلىٰ حدّ الضرورة، يفضل المستفاد من جهة النّظر والفكر في القوة والاستحكام، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام، كما قالوا: (ليس الخبر كالمعاينة) و(لا الظنّ كاليقين) ومعلوم أن العلم الأوّل أتىٰ النفس أوّلا من طريق الحواسّ والطباع، ثم من جهة النظر والرّويّة، فهو إذن أمسّ بها رحمًا، وأقوىٰ لديها ذمما، وأقدم لها صحبة، وآكد عندها حرمة، وإذ نقلتها في الشيء بمثله عن المدرك بالعقل المحض، وبالفكرة في القلب، إلىٰ ما يدرك بالحواسّ أو يعلم بالطّبع، وعلىٰ حدّ الضرورة، فأنت إذن مع الشاعر وغير الشاعر إذا وقع المعنىٰ في نفسك غير ممثّل ثم مثّله كمن يخبر عن شيء من وراء حجاب، ثم يكشف عنه الحجاب ويقول: (ها هو ذا، فأبصر تجده علىٰ ما وصفت) فقد كشف الإمام عبد القاهر في النص السابق عن براعة التمثيل، وكيف وحَّد فيه الطاقات الشعرية والإقناعية من أجل تحقيق تلك الغاية الحجاجية.

(١) أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني: ٨٦، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة.

كما فصَّل الإمام عبد القاهر القول في حجاجية المجاز عندما أراد أن يثبت أن الاستعارة صفة للمعنىٰ لا اللفظ، وأثبت ذلك بقوله: "يدلّك علىٰ ذلك قولنا: (جعله أسدًا، و جعله بدرًا، و جعل للشمال يدا)، فلولا أنّ استعارة الاسم للشيء تتضمّن استعارة معناه له، لما كان لهذا الكلام معنىٰ؛ لأن (جعل) لا يصلح إلا حيث يراد إثبات صفة للشيء، كقولنا: (جعلته أميرًا، وجعلته لصّا)، نريد أن نثبت له الإمارة واللصوصية، وحكم .جعل) إذا تعدّىٰ إلىٰ مفعولين حكم (صيّر)، فكما لا تقول: (صيّرته أميرًا) إلا علىٰ معنىٰ أنك أثبتّ له صفة الإمارة، وكذلك لم تقل:(جعلته أسدًا) إلا علىٰ أنه أُثبِتَ له معنىٰ من معاني الأسود، ولا يقال: «جعلته زيدا»، بمعنىٰ سمّيته زيدا، ولا يقال للرجل: (اجعل ابنك زيدا) بمعنىٰ سمّه زيدًا، ولا يقال: (ولد لفلان ابن فجعله زيدا) أي: سمّاه زيدًا، وإنما يدخل الغلط في ذلك علىٰ من لا يحصّل هذا الشأن[1].

كما نجد الألفاظ الدالة علىٰ الحجاج مثل:(الحجة، والبرهان، والإقناع، والاستدلال) حاضرة وبقوة عند حازم القرطاجنّي، والسكاكي، وكذلك ابن وهب كان له نصيب وافر في العناية بالحجاج، فقد خصه بمزيد من البحث والدراسة، وبسط الحديث عن وظائفه وغاياته، كما لم يغفل الحديث عن الآداب الذي يجب أن يتحلىٰ بها المحاجج.

ويتجلىٰ مما سبق ذكره مدىٰ اهتمام البلاغيين والنقاد في القرون الأولىٰ من الهجرة بالحجاج، خاصة الجاحظ، والعسكري، وابن وهب، فقد ذكروا مواطن استعماله، وعددوا غاياته، وآدابه التي يجب أن يتحلىٰ بها كل من يتخذه طريقًا للتأثير والإقناع.

(١) أسرار البلاغة: ٢٨٦

أما بالنسبة للحجاج عند الغربيين المحدثين فنستطيع أن نقف عند البداية الحقيقية لعناية البلاغيين به عند العمل المشترك الذي قام به: شاييم بيرلمان وأولبريخت تيتكا، حيث أنتجا أهم مصنف تناول قضايا الحجاج وألم بها، وهو كتاب: " مصنف في الحجاج – الخطابة الجديدة"، وقد عرف بيرلمان وتيتكا الحجاج بقولهما: موضوع نظريه الحجاج هو دراسة التقنيات الاستدلالية التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلىٰ التسليم بما يعرض عليها من أطروحات أو أن تزيد في درجه ذلك التسليم، كما تحدثا عن الغاية من الحجاج وقالا إن غاية كل حجاج أن يجعل العقول تذعن لما يطرح عليها من آراء أو أن تزيد في درجه ذلك الإذعان، فأنجع الحجاج ما وُفق في جعل حدة الإذعان تقوىٰ درجتها لدىٰ السامعين بشكل يبعثهم علىٰ العمل المطلوب إنجازه أو الإمساك عنه، أو هو ما وُفِّق علىٰ الأقل في جعل السامعين مهيئين للقيام بذلك العمل في اللحظه المناسبة[1].

ومن خلال التعريف السابق للحجاج اتضح أنه عبارة عن " نظرية خطابية تدرس التقنيات الخطابية في علاقتها بوظيفتها الحجاجية التأثيرية، وشروط بنائها ونموها، وتعتبرها حججاً موجهة للدفاع عن أطروحات أو دحضها، وتبحث شروطها وآثارها دون الاهتمام بطبيعتها إنها في نظره حجج وعناصر إثبات موجهة للإفحام أو الإقناع، بغض النظر عن الشكل الذي تتخذه "[2].

(١) ينظر: الإمبراطورية الخطابية صناعة الخطابة واالحجاج: شاييم بيرلمان وأولبريخت تيتكا: ١٦ ترجمة د الحسين بنو هاشم، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٢٢م.

(٢) النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية اللسانية والمنطقية محمد طروس: ٤٤، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولىٰ: ٢٠٠٥م.

وقد ظهر بعد بيرلمان توجه جديد في دراسة الحجاج من وجهة لسانية، وقد مثَّل هذ التوجه: ديكرو وأنسكمبر في كتابيهما: (الحجاج في اللغة) فقد نظرا لبنية الحجاج نظرة متكاملة لم تقتصر علىٰ ما تضمنه الخطاب من بنىٰ منطقية أو بلاغية كما هو الحال عند بيرلمان وتيتكا.

كما لاحظ ديكرو وأنسكمبر مجموعة مهمة جدًا من القضايا المهمة التي أسهمت بشكل واضح في تطور نظرية الحجاج، منها: أن الحجج متفاوتة من ناحية القوة والضعف، وبالتالىٰ يتنوع تأثيرها في المتلقىٰ قوة وضعفًا، كما أشارا إلىٰ فكرة السلالم الحجاجية، وفرقا بين الروابط الحجاجية والعوامل الحجاجية، كما تطرقا لعلاقة الحجاج بمباحث علم الدلالة.

وبعد تتبع ما جاء في الفكر الغربي الحديث عن نظرية الحجاج، اتضح بما لا يدع مجالا للشك أن المدونة العربية التراثية قد اشتملت علىٰ كل ما ذهب إليه بيرلمان ولوسي تيتكا وديكرو وأنسكمبر وماير وغيرهم ممن ساروا علىٰ نهجهم واقتفوا آثارهم، فالخطاب الحجاجي لم يكن وليد العصر الحديث، بل جذوره ضاربة في التراث العربي من لدن الجاحظ والعسكري وإمام البلاغيين عبد القاهر الجرجاني.

الحجاج في الشعر العربي بين العموم والخصوص:

قد يذهب بعض الدارسين إلىٰ أن الحجاج ضرب من المعارف الشائعة، بحيث إن أحطنا بقوانينه وطرائق تصريفه في الخطاب أتىٰ هذا الخطاب الحجاجي مشابهًا لأي خطاب حجاجي آخر، لا ذاتية فيه ولا تميز باعتباره قائمًا في جوهره علىٰ الشائع المبتذل، وهذا ما يناقض حقيقة الشعر الذي يقوم علىٰ الفردية، ويتاسس علىٰ التجربة الذاتية، فلا مجال فيه للابتزال، فإذا به يناقض الحجاج وإذا بماهيته أو حقيقته تقصيه من دائرة الحجاج والاستدلال.

وإذا كان الحجاج من المعارف الشائعة، فإن ذلك لا يعني أنه قادر متىٰ وُجِد في نص محكم النسج، دقيق البناء أن يكتسب طرافة وألقًا، بحيث يسمو عن المتداول المعروف، ولا يكاد يظهر بمظهر المبتذل، وهو في ذلك يلتقي بكل المعارف التي يوظفها الشعراء في قصائدهم، فالحجة او الدليل إن اعتمده شاعر فحل مجيد اكتسب قوة، واكتسىٰ طلاوة وحلاوة بحسن التعبير وجودة الصياغة، والرابط الحجاجي متىٰ أحله الشاعر محله المناسب في القصيدة أو البيت كان تعبيرًا رائعًا عن قدرة فردية فذة رغم أن المعرفة بالروابط الحجاجيه والعلم بكيفيات تصريفها في الكلام يعدان من الشائع المعروف.

والشعراء في ذلك كله يتفاوتون تفاوتا بيِّنا في رسم استراتيجيات الإقناع وسط شِراك الإغراء والإغواء قصد حمل المتلقي علىٰ الإذعان، فالأفانين الرافدة للحجاج كثيرة معروفة، لكن النصوص الشعرية قامت في توظيفها علىٰ تباين واختلاف واضح يؤكد صراحة ان الشعر حتىٰ وإن ولج باب الحجاج وقام علىٰ الجدال والاستدلال يظل تجربة ذاتية فذة ولا تعارض بين حقيقته تلك وكون الحجاج من المعارف الشائعة.[1]

❁❁❁❁❁

(١) ينظر: الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه: د/ سامية الدريدي: ٦٦: ٦٨ عالم الكتاب الحديث، الأردن، الطبعة الثانية ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

المبحث الثاني

التحليل الحجاجي للقصيدة

إِذا المَرءُ لَم يُدنَس مِنَ اللُؤمِ عِرضُهُ ... فَكُلُّ رِداءٍ يَرتَديهِ جَميلُ

وَإِن هُوَ لَم يَحمِل عَلىٰ النَفسِ ضَيمَها ... فَلَيسَ إِلىٰ حُسنِ الثَناءِ سَبيلُ

وَقَائِلَةٍ: مَا بَالُ أُسْرَةِ عادِيا ... تَبَارَىٰ وفِيهِمْ قِلَّةٌ وَخُمُول

تُعَيِّرُنا أَنّا قَليلٌ عَديدُنا ... فَقُلتُ لَها إِنَّ الكِرامَ قَليلُ

وَما قَلَّ مَن كانَت بَقاياهُ مِثلَنا ... شَبابٌ تَسامىٰ لِلعُلىٰ وَكُهولُ

وَما ضَرَّنا أَنّا قَليلٌ وَجارُنا ... عَزيزٌ وَجارُ الأَكثَرينَ ذَليلُ

لَنا جَبَلٌ يَحتَلُّهُ مَن نُجيرُهُ ... مَنيعٌ يَرُدُّ الطَرفَ وَهُوَ كَليلُ

رَسا أَصلُهُ تَحتَ الثَرىٰ وَسَما بِهِ ... إِلىٰ النَجمِ فَرعٌ لا يُنالُ طَويلُ

هُوَ الأَبلَقُ الفَردُ الَّذي سَارَ ذِكرُهُ ... يَعِزُّ عَلىٰ مَن رامَهُ وَيَطولُ

وَإِنّا لَقَومٌ لا نَرىٰ القَتلَ سُبَّةً ... إِذا ما رَأَتهُ عامِرٌ وَسَلولُ

يُقَرِّبُ حُبُّ المَوتِ آجالَنا لَنا ... وَتَكرَهُهُ آجالُهُم فَتَطولُ

وَما ماتَ مِنّا سَيِّدٌ حَتفَ أَنفِهِ ... وَلا طُلَّ مِنّا حَيثُ كانَ قَتيلُ

تَسيلُ عَلىٰ حَدِّ الظُباتِ نُفوسُنا ... وَلَيسَت عَلىٰ غَيرِ الظُباتِ تَسيلُ

صَفَونا فَلَم نَكدُر وَأَخلَصَ سِرَّنا ... إِناثٌ أَطابَت حَملَنا وَفُحولُ

عَلَونا إِلىٰ خَيرِ الظُهورِ وَحَطَّنا ... لِوَقتٍ إِلىٰ خَيرِ البُطونِ نُزولُ

فَنَحنُ كَماءِ المُزنِ ما في نِصابِنا ... كَهامٌ وَلا فينا يُعَدُّ بَخيلُ

وَنُنكِرُ إِن شِئنا عَلىٰ الناسِ قَولَهُم ... وَلا يُنكِرونَ القَولَ حينَ نَقولُ

إِذا سَيِّدٌ مِنّا خَلا قامَ سَيِّدٌ ... قَؤُولٌ لِما قالَ الكِرامُ فَعُولُ

وَما أُخمِدَت نارٌ لَنا دونَ طارِقٍ ... وَلا ذَمَّنا في النازِلينَ نَزيلُ

وَأَيّامُنا مَشهورَةٌ في عَدُوِّنا ... لَها غُرَرٌ مَعلومَةٌ وَحُجولُ

وَأَســـيـافُـنـا فـي كُـلِّ شَـــرقٍ وَمَـغـرِبٍ بِـهـا مِـن قِـراعِ الـدارِعـيـنَ فُـلـولُ
مُـعَـوَّدَةٌ أَلّا تُسَـــلَّ نِصـــالُـهـا فَـتُـغـمَـدَ حَـتّىٰ يُسـتَـبـاحَ قَـبـيـلُ
سَـلـي إِن جَـهِـلـتِ الـنـاسَ عَـنّـا وَعَـنـهُـمُ فَـلَـيـسَ سَـــواءً عـالِـمٌ وَجَـهـولُ
فَـإِنَّ بَـنـي الـرَيّـانِ قَـطـبٌ لِـقَـومِـهِـم تَـدورُ رَحـاهُـم حَـولَـهُـم وَتَـجـولُ

استهل السموأل لاميته بهذه المقدمة غير التقليدية، حيث وثب السموأل فيها علىٰ غرضه مباشرة؛ للرد علىٰ المرأة المعيرة، ولم يلجأ للمقدمات الطللية ؛ لأن هدفه الرئيس كان أكثر إلحاحًا عليه من الالتزام بالتقاليد الشعرية، هذا التحول الأسلوبي أحدث حالة من التهيؤ النفسي والذهني، وكأن السموأل يريد أن يلفت انتباه المتلقين لما يجب أن يُقال من كلام غاية في الأهمية، وقد أشار ابن رشيق إلىٰ هذا النمط من التحول الأسلوبي في قوله:"ومن الشعراء من لا يجعل لكلامه بسطا من النسيب، بل يهجم علىٰ ما يريده مكافحة، ويتناوله مصافحة، وذلك عندهم هو: الوثب، والبتر، والقطع، والكسع، والاقتضاب"[1].

وقد يكون باعث السموأل في عدم استهلال قصيدته بالمقدمة الطللية المعهودة عند العرب، هو شعوره بالتميز والتفرد والتسامي عن سائر الأجناس؛ فهو يرتكز في خطابه الذاتي للأقلية علىٰ مبدأ التمييز والتسامي؛ منطلقًا من اعتقاد قومه بأفضليتهم علىٰ سائر الأجناس والأمم.

وقد تمثل مطلع اللامية في شكل جمل خبرية تقريرية، أفاد أسلوب الشرط فيها التقرير والتوكيد؛ للتنبه علىٰ مراد السموأل ومقصده منذ مطلع القصيدة، ففي قوله: (إذا المَرءُ لَم يدنس.. فَكُلُّ رِداءٍ يَرتَديهِ جَميلُ) أسلوب شرط أفاد التقرير والتوكيد،

(1) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق: ١ / ٢٣١، ت / د. محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط٥ الخامسة ١٤٠١هـ / ١٩٨١م،

وآثر التعبير بـــ (إذا) في هـذا البيت دون (إن) ؛ لأنـه أراد أن يجعـل هـذا الميثاق كالعقيدة الثابتة التي لا تقبل الشـك، ولا مجال فيها للمناقشة، ولعل هذا كان مسوغًا لمجيء الجمل في مفتتح القصيدة خبرية تقريرية متتالية.

وقد اسـتهل السـموأل لاميته بحجتين عامتين من حجج الأمثال، الحجة الأولىٰ في قوله:

إِذا المَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِن اللُّؤْمِ عِرْضَـهُ فـكُـلُّ رِداءٍ يَـرْتَـدِيـهِ جَـمِـيـلُ

ففي البيت حكمة جرت مجرىٰ المثل، وقد جعلها السموأل توطئة وتمهيدًالفخره بقومه ونسـبة كل الفضـائل لهم رغم قلة عددهم، ولا شـك أن هذه الحكمة كانت أشـبه بـالأصـل والأسـاس للميثاق الاجتماعي، والقانون العام الذي إذا ما تحلىٰ الإنسان بضوابطه صَلُحَ المجتمع كله.

وحجـة المثال الثانية في قوله: (إن الكرام قليل) ومن الملاحظ في هذه الحجة أن الشـاعر لم ينف عنهم صـفة القلة بل اعتمد عليها في إثبات أن الكرام عددهم قليل، ولا شك أن هذا أقوىٰ في إقامة الحجة وأوقع في النفس، وأقوىٰ في التأثير.

وتنطوي هذه الجملة أيضـا علىٰ حجة السـببية، فقد جاءت لتعليل قول المعيرة للشـاعر: (أنا قليل عديدنا)، وقد اعتمد السـموأل علىٰ حجة السـببية كثيرًا في هذه القصيدة لتدعيم موقفه، والرد علىٰ كل ما نسبته المرأة المعيرة له.

ومن الجـدير بـالملاحظة أن السـموأل سـرعان ما تحول بخطابه الحجاجي من العموم الشائع إلىٰ الخصوص الذاتي، ونلمح ذلك عندما شرع في الحديث عن مآثر قومه في قوله:

ومـا قَـلَّ مَـنْ كـانَـتْ بَـقـايـاهُ مِثْـلَـنـا شَـبـابٌ تَسـامَىٰ لِـلْـعُـلا وَكُـهُـولُ

فقد انتقل الحديث من خلال هذا البيت إلىٰ الحديث الخاص عن أفراد قبيلته، يفتخر بهم، ويتباهىٰ بصغيرهم وكبيرهم، وقد ظهر ذلك من خلال الطباق بين (شباب وكهول) فكل من في القبيلة صغيرًا كان أم كبيرًا يبحث عن العلا، وينشد المفاخر.

ثم تبرز حجة التضاد في قوله:

وما ضَرَّنا أَنَّا قَلِيلٌ و جَارُنا عَزِيزٌ، وجارُ الأَكْثَرِينَ ذَلِيلُ

فالشاعر في هذ البيت يؤسس لنموذجين متضادين: نموذج في القوة والمنعة،وآخر في الضعف والهوان، نموذج في التسامي والنقاء العنصري، ونموذج آخر في مضاده، وجُل القصيدة جارٍ علىٰ هذا النحو من الثنائيات المتضادة، فمن يتأمل حركة الضمائر في القصيدة منذ مطلعها يجدها قد تجلت علىٰ شكل ثنائيتين متضادتين، مثلت الأولىٰ منهما: الفاعل، وهو الضمير المستتر الغائب (هي) والذي يرمز إلىٰ المرأة المعايرة، وهي بؤرة الحدث في النص أو المثير، وتمثل المعادل الموضوعي لعدوه من غير اليهود، أو لكل من هو دونهم، والطرف الآخر الأنا، ويمثله السموأل الذي خرج فيه عن ذاتيته إلىٰ عمومية الجماعة ؛ لأنه نصَّب نفسه ليكون لسانهم المدافع عنهم؛ عن طريق علاقة السلطة ؛ ويصوره الضمير (نا) في قوله (تعيرنا) والذي عبر به الشاعر عن قبيلته التي يدافع عنها.

والمعايرة حجة مبسوطة في القصيدة كلها؛ لأنها كانت المحرك والمثير الذي أهاج الشاعر نحو هذه المناظرة، كما أن علاقة التناقض التي وظفها السموأل في هذه المناظرة قد حملته علىٰ توظيف الحجة المصورة التي تؤكد المعني الحسي الذي عمد إليه عندما استدعي الحصن في قوله:

لَنا جَبَلٌ يَحْتَلُّه مَنْ نُجِيره مُنِيفٌ، يَردُّ الطَّرْفَ وهْوَ كَلِيلُ

رَسَا أَصْلُه تَحْتَ الثَّرَىٰ، وسَما بِهِ إلىٰ النَّجْمِ فَرْعٌ لا يُنال طَويل

هـو الأَبْـلَـقُ الـفَـرْدُ الـذي ســارَ ذِكْـرُهُ يَـعِـزُّ عـلـىٰ مَـنْ رَامـهُ فـيَـطُـولُ

وفي ضوء تراتب السلالم الحجاجية نجد السموأل قد بدأ حججه في القصيدة بشكل تصاعدي، فبعد أن استهل لاميته بالحكمة بدأ يذكر الحجج العقلية الخالصة التي تخاطب العقل؛ لكي تكون توطئة وتمهيدًا لتراتب الحجج وطريقة سوقها من الأضعف إلىٰ الأقوىٰ، ثم بعد ذلك انتقل من الحجج العقلية المجردة إلىٰ الحجج التصويرية المجسمة؛ رغبته منه في أن تكون حججه ناطقة بمآثر وفضائل قومه التي يشهد بها القاصي قبل الداني. فالسموأل لم يُوفَق في توظيف الحجج لخدمة مقصدة من النص فحسب، بل أجاد أيضًا في طريقة سوق الحجج تراتبيًا ؛ وذلك بالانتقال من الحجج الأضعف إلىٰ الحجج الأقوىٰ أو من العقلية المجردة إلىٰ الحجج التصويرية المجسمة.

وقد تعمد السموأل دائمًا تغييب الطرف الأول (المعادل الموضوعي- المرأة المعيرة)، مكتفيًا بالمعايرة أو التهمة التي ألصقتها به؛ لأنها الدافع الذي حرك وجدانه نحو إنشاد لاميته، ومن ثَّم يستأثر السموأل بالخطاب وحده، وينفرد بتلك المناظرة الجائرة الظالمة.

وقد جسد الفعل (تُـعَـيِّـرُنا) النزاع المحتدم والعلاقة السلبية الكائنة بين الشاعر والمرأة المعيرة، وقد استنطق هذا الفعل واقع العلاقة بين ضمير الغائب (هي) الذي مثل المرأة المعيرة، والضمير(نا) الذي مثل الشاعر وقبيلته؛ فهي علاقة سلبية، ونموذج من نماذج العلاقات المأزومة؛ لأن مبناها كان علىٰ الاستهزاء والسخرية والمعايرة.

كما يتجلىٰ أيضًا في مطلع القصيدة جمع الشاعر بين الفخر والتعريض معًا، حيث افتخر الشاعر بقومه، وعرَّض بمن سواهم من غير اليهود ؛ فهو يفخر بقلة عدد قومه ؛ وعلل هذا بقوله: (إِنَّ الـكِـرَامَ قَـلِـيـلُ)، وعرَّض بمن سواهم من غير

اليهود مع كثرتهم، معللاً بقوله (وجـارُ الأَكْثَـرِينَ ذَلِـيـلُ) في حجة فلسفية عقلية مجردة ؛ لمحاولة إقناع معيرته وإلزامها الحجة، وإلجائها للتسليم والخضوع والإذعان لكل ما يقول.

كما لجأ السموأل لتوظيف الوسائل البلاغية؛ لتعزيز عملية الإقناع، كالاستعارة الحجاجية في قوله: (إذا المَرءُ لَم يدنس مِنَ اللُؤم عرضه) ففي هذه الجملة استعارتان مكنيتان، في الأولىٰ تصوير للؤم بقذارة تدنس العرض، وفي الثانية تصوير للعِرض بثوب أبيض نظيف يدنس، ففيهما تجسيم للؤم وإيحاء بقبحه والتنفير منه. وفي قوله (فَكُلُّ رِداءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ) استعارة تصريحية ؛حيث صوَّر الشاعر كل خُلقٍ حَسَنٍ يتحلىٰ به الإنسان برداء جميل يرتديه، كما وظَّف السموأل الحجج الكنائية في قوله: (لم يحمل علىٰ النفس ضيمها) للدلالة علىٰ الضعف، وقد استدعت الكناية في القول المعنىٰ مصحوبًا بالدليل عليه، والحجة وفي طيانها برهانها؛ زيادة في الإيجاز ورغبة في التجسيم، وكذلك الكناية عن العزة والمنعة والشرف في قوله: (وما قل من كانت بقاياه مثلنا).فالتصوير عند السموأل كان عملية استدلالية خالصة، تقوم علىٰ الانتقال من المعنىٰ إلىٰ معنىٰ المعنىٰ، وقد نزع عن بيانه شرنقة الزخرف والتفنن، وربطه بالبعد الإقناعي؛ إذ هدف بيانه حجاجي يتعلق بتحصيل المطلوب ؛ مما يعني خدمته لمقصدية المتكلم ضمن سياق تخاطبي معين.[1] وهكذا عمد السموأل إلىٰ تقوية حججه، حتىٰ يصل بالمتلقي للإقتناع التام.

كما بُنيت اللامية علىٰ تنوع حركة الضمائر؛ فنجدها قد توزعت علىٰ مساحة القصيدة كلها بشكل واضح، وبدلالات متعددة، لا تنفصل في معناها عن البِنَىٰ

(١) ينظر: بلاغة الإقناع في المناظرة: د/ عبد اللطيف عادل: ٧٨ منشورات ضفاف، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م، بيروت، لبنان.

التركيبية للنص، فقد وُظفت توظيفًا بديعًا، ووُضِعَت في قالب حجاجي متفرد عُرِف به الشاعر واشتُهِرَ به ؛ وقد تميزت هذه الضمائر بالتنوع، وذلك لأن مبنىٰ اللامية في الأصل يعتمد علىٰ الثنائيات المتناقضة بدءًا من (الأنا) الذي مثله الشاعر ثم ذاب في الكيان الجمعي للقبيلة، حتىٰ نصَّب نفسه متحدثا باسمها، والضمير الثاني (الآخر) الذي صورته المرأة المعايرة، وهي زمر لكل من هو دونهم أو عدوهم ؛ وعليه فاللامية ما بين ضمائر مستترة، وضمائر بارزة منفصلة مثل (نحن)، وضمائر بارزة متصلة، وهي التي استحوذت علىٰ جُل القصيدة مثل (شئنا – ذمنا– تعيرنا – صفونا– حملنا – علونا – أنَّا – ما ضرنا – لنا – آجالنا – منا – نفوسنا – أيامنا – عدونا – أسيافنا – عنا..... إلخ) ؛وذلك للتأكيد علىٰ المقصد الرئيس للنص، والمنطلق من مبدأ التمايز، والتسامي، واستحواذ قوم الشاعر علىٰ المكارم. فقد كشفت اللامية منذ مطلعها عن أن مبناها سيكون علىٰ شكل ثنائيات متضادة ؛ جاءت لتبرز حدة الصراع بين الشاعر والمرأة المعيرة، وقد اعتمدت هذه الثنائيات المتناقضة كذلك في تناقضها علىٰ تراتبية السلالم الحجاجية.

كما ترابطت أبيات القصيدة بمطلعها ترابطًا متمايزًا؛ لتؤكد علىٰ حقيقة ثابتة صارت بمثابة المقدمة للنتيجة، المقدمة بعدم تدنيس المرء لعرضه ؛ فالنتيجة الحتمية لذلك: أن كل رداء يرتديه يكون جميلاً. كما أن كل الأبيات متصلة بهذه النتيجة النهائية، بل وتدور في فلكها، بحيث تبدو أبيات القصيدة كلها، وكأنها دوائر يتولد بعضها عن بعض؛ للتأكيد علىٰ هذه النتيجة، ومهما اتسعت هذه الدوائر حول نقطة الصراع أو بؤرة التوتر؛ التي تؤكد المقصد الأهم أو الرئيس في النص؛ ستعود إلىٰ نفس النتيجة الحتمية التي أكدها السموأل وهو أن كل رداء يرتديه جميل، فبناء النص يعتمد التسلسل التراتبي للمقدمات التي تليها النتائج، كما أن بناء النص

يعتمد التسلسل التراتبي للحجج ؛ فنجده قد رتب حججه في البدء بالعقلية المنطقية، ثم الانتقال منها إلىٰ الحجج التصويرية ؛ تدعيمًا لخطابه.

وباستقصاء أساليب الحجاج الواردة في مطلع القصيدة نجد أن السموأل قد أحسن توظّيف الخطاب الحجاجي لتصوير واقع الصراع الدائر في القصيدة، ففي البيت الأول استعارتان مكنيتان ؛ حيث صور اللُّؤْمِ بشيء يدنِس، وصور العرض بشيء مادي يُدنَّس، وفي قوله: (فكل رداء يرتديه): استعارة تصريحية ؛ حيث شبه الشاعر كل خصلة حسنة يتحلىٰ بها الإنسان برداء جميل يرتديه، وكذلك في البيت نفسه استعارة تمثيلية، حيث شبه هيئة الإنسان الذي برئ عِرضه من صفات اللؤم كالبخل، والخسة، والدناءة، بهيئة من يستحسن منه أي ثياب يرتديه، وفيه أيضًا كناية عن طيب أفعاله وحُسن خصاله، ولا شك أن ازدواج التمثيل مع الحجاج أضاف بُعداً استدلاليًا وإقناعيًا عظيمًا.

وهكذا عمد السموأل إلىٰ سوق الحجج تباعًا، حيث التمثيل المجازي الذي عرض الصورة في معرض الاستلزام بين طرفيها، والخروج بصوت الفخر الذي كان ظاهره الفخر بقبيلته، وباطنه التعريض بمن سواهم من غير اليهود؛ للتأكيد علىٰ اختصاص قبيلته بكل الفضائل والخصال النبيلة مثلما يتوهم أو يزعم.

كما تنوعت الأساليب المستخدمة في النص تبعًا لتنوع الحجج والعلاقات؛ بهدف الخروج من عمومية الخطاب الحجاجي إلىٰ خصوصية الخطاب الذاتي، وقد كان هذا التحول بفضل ذوبان الكيان الفردي في الكيان الجمعي، و بفضل حجة السلطة، وحجة العاطفة التي استحوذت علىٰ كيان الشاعر؛ لأن السموأل صار لسان قبيلته، وصوتها المدافع عنها، وحصنها الأمين.

وفي سياق العلاقة بين السموأل ولاميته تولدت حجة ذات خصوصية بالغة، وذات طاقات إيحائية حجاجية هائلة، ألا وهي حجة السلطة، فهي كثيرة الشيوع في القصيدة، وممتدة علىٰ مساحة القصيدة كلها، وقد بنيت اللامية عليها، وقد عززتها حجج أخرىٰ علىٰ رأسها علاقة التضاد التي كانت رافداً مهمـًا من روافد الذاتية، فالسموأل قد تحول إلىٰ سلطة، وحرص في لاميته علىٰ أن يظهر بمظهر القائد الذي لا يُرَد له أمر.

وباستجلاء العلاقات الحجاجية في النص تجلت علاقة السببية ؛ التي عللت الحكمة التي صدَّر بها السموأل لاميته: (إِذا المَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِن اللُّؤْمِ عِرْضَهُ...) فهي حجة حِكمية تصدرت النص علىٰ المستوىٰ الإقناعي بالشرط، وهيأت المتلقي لترقب الجواب.

ثم يأتي صوت المرأة في البيت الثالث، الذي كان بمثابة المثير، الذي حرك الشاعر نحو الرد عليها؛ لأنها قد عايرتهم بأنهم قليل، فصوت هذه المرأة منذ مطلع النص جلي، وذاتها حاضرة و بقوة، حيث كونها معادلاً موضوعيـًا تُجسد العدو المعاير، والمحقر، والمقلل من الشأن.

وتستوقفنا دلالة الضمير الغائب الذي يرمز إلىٰ تلك المرأة المعيرة، فغيابه يخلق فضاءات عدة، ويسمح باحتمالات شتىٰ فهو يمثل صوتًا خارجيًا لمجهول، وإن كان تجليه في صورة مؤنث يحصر الدلالة نسبيًا بين حزمة من الدوال، فهو قد يشير إلىٰ أنثىٰ أو امرأة بعينها، وقد يرمز الىٰ أنثىٰ مطلقة غير محددة، أو يمثل صوتًا اختزنته ذاكرة الشاعر من كثرة تردده، أو يمثل صوت قبيلة مبارزة لقبيلة الشاعر، أو صوت القبيلة العربيه عامة، وإذا وضعنا في اعتبارنا أن النص لشاعر يهودي يعيش بين العرب، واعتمادا علىٰ هذا الافتراض الأخير فإن النص يكشف منذ بدايته عن ثنائية ضدية، ويتمحور حول فكرة الصراع بين طرفين، أو طائفتين يحاول كلاهما أن يثبت

تفوقه علىٰ نظيره، وبمعنىٰ آخر فإن النص يضعنا أمام ضرب من ضروب المناظرة أو المفاخرة الشعرية، ومع ذلك فهي ليست مناظرة متكافئة؛ لأن الطرف الأول لا يحضر باعتباره مناظرًا إلا في البداية من خلال هذا الصوت الخارجي الغائب الذي يعيب علىٰ الطرف الثاني قله العدد، وهو ما يرادف مصطلح (الأقلية) في عهدنا الحاضر، وهو ما ينطبق بشكل واضح علىٰ طائفة اليهود آنذاك الذين كانوا يمثلون أقلية وسط الطوفان البشري للقبائل العربية التي طالما فاخرت بكثرتها.

ويتعمد الشاعر تغييب هذه المرأة وطمس أطروحاتها أو حججها الأخرىٰ مكتفيًا بهذه التهمة التي تقترن بوجوده في كل زمان ومكان، وتمثل له حساسية خاصة؛ فيستاثر وحده بالخطاب والمناظرة والمفاخرة، ثم يأتىٰ رده في الشطر الثاني من البيت الاول ليعكس ذكاء حادًا، حيث ينسب الكرم إلىٰ الأقلية وينفيه بشكل مباشر عن الأكثرية، وبذلك يُكرِّس خطابه منذ البداية فكرة التضاد أو الصراع بين الأقلية والأكثرية، ويأتي جامعًا بين النقيضين: الفخر والهجاء، ويستند خطاب الاقلية علىٰ مبدأ التميز والتسامي والنقاء الجنسي انطلاقًا من اعتقادهم بفكرة الأممية أو أفضليتهم علىٰ الأمم الأخرىٰ[1]، والسموأل كان يتمثل صورة تلك المرأة المعيرة أمامه، ويتردد صوتها في أذنيه ؛ ومن ثَمَّ يهيج ويحنق ويثور، حتىٰ بلغ الفخر منه مبلغه ؛ وبذلك لم يكن حضور الذات المخَاطبة، أو المرأةّ المعيرة حضوراً سلبيًا، بل كان صوتها دافعًا ومحركًا لذاته المبدعة، ومثيرًا لفخره الذي لم يهدأ طوال القصيدة.

(١) يُنظَر: النص الشعري وآليات القراءة: د/ فوزي عيسىٰ: ١٠١ دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٦م

وقد غلب علىٰ هذه اللامية الفخر القبلي، فهو غالب علىٰ موضوعات شعر يهود الجاهلية بوجه عام، لا السَّموأَل خاصة ؛ لأنهم "كانوا يحاولون إظهار التجلد، وبث الرعب في قلوب الذين يحسبونهم أعداء، أو يتوقعون عداوتهم مع ما تأتي به الأيام، كما أرادوا به أن يحتاطوا بسياج من الدعاية ؛ التي تبقىٰ عليهم الشعو بأنهم ؛ صنف ممتاز عقيدة، وتفكيراً، وسلوكًا وغنىٰ وسطوة، وهذا سر تعلقهم بالفخر في معظم المأثور عنهم من شعر"(١).

كما عززت علاقة الاستنتاج التي وظفها السموأل في هذه المناظرة التي دارت بينه وبين تلك المرأة، من عمق وكثافة العلاقات الحجاجية التي بُنيت عليها القصيدة، فحولت القصيدة لميثاق شرف أخلاقي، وقانون أممي عام لكل من تبعه، وسار علىٰ نهجه، فكانت القصيدة أشد صدقًا وقوة وتأثيرًا.

وقد جرت الحكمة التي استهل بها السموأل لاميته مجرىٰ الأمثال المأثورة ؛ يُضرِب بها المثل لحُسن الإنسان وجماله بنقاء عرضه وطيب ذكره، ويستحث بها الإنسان للتحلي بطيب الخصال وكريم الأخلاق، وقد نال هذان البيتان استحسان كثير من النقاد، فقد عدهما أبو هلال العسكري من أحكم ابتداءات العرب "(٢)

وتأخذ الصورة الحجاجية في هذه القصيدة بعدًا فنيًا أعمق وأرحب ؛ فيوظفها السموأل لخدمة موقفه، وينوع ظلالها بشكل مكثف؛ ليخرج بنا نحو المقابلات المتناقضة، حيث يأتي خطاب الشاعر في أغلب أبيات هذه اللامية جامعًا بين النقيضين: الفخر والهجاء ؛ وبذلك مثلت لاميته ذلك الفن التركيبي

(١) شعراء اليهود في الجاهلية وصدر الإسلام د. أحمد محمد النجار، دار النهضة العربية، بيروت، سنة ١٩٧٨م، ص٤، ٤٨

(٢) الصناعتين: أبو هلال العسكري: ٤٣٣ .

المعروف بالمفاخرات ؛ لأنه زاوج في خطابه بين الفخر والهجاء، وتلك حجة أخرىٰ يرتكز عليها الشاعر.

ومن خلال استنطاق النص نجد أن السموأل قد أحسن توظيف التحولات الأسلوبية التي نسب من خلالها كل فضل ومزية لقومه، ونفاها عن غيرهم، وهكذا الخطاب الحجاجي للأقلية دائما ما يعتمد علىٰ مبدأ التمييز، والتسامي.

ويتجلىٰ حضور المرأة بصوتها بشكل مباشر بداية من البيت الثالث: (وقائلة: ما بالُ أُسرة عاديا...)؛ حيث يبدو صوتها عاليـًا بالانتقاد والتحقير والمعايرة، وان لم يتجاوز حدود هذين البيتين – الثالث والرابع – إلا أن حضورها كان بشكل تخييلي حتىٰ نهاية النص؛ أي أن الشاعر كان يستحضر صورتها أمامه وصوتها في أذنيه كمثير يساعده علىٰ استكمال اللامية، فكانت هي الباعث علىٰ تحقيق مقصده الرئيس من النص ؛ وبذلك لم يكن حضور المرأة حضوراً سلبيـًا في هذه القصيدة، بل كان صوتها المتخيل هو المحرك والدافع، ولا شك أن قوة صوت الشاعر وحضور خطابه ووضوحه قد أكد علىٰ اعتزاز السموأل بقومه، وقد ألمح إلىٰ شدة وقع انتقاد المرأة المعيرة في نفسه، فلولا هذا القدح من المرأة ما كانت هذه اللامية.

كما كان السموأل موفقًا في اختيار أساليبه التي أضفت علىٰ النص جدة وطرافة ؛ فنجده قد أحسن وأجاد عندما قدَّم الجار والمجرور في قوله:(من اللؤم) علىٰ نائب الفاعل (عرضه)؛ للتأكيد علىٰ مقصده من النص، ورغبته في تقوية حججه وتدعيمها، كما أجاد أيضًا عندما أطنب بالاعتراض في قوله:(فكل رداء يرتديه جميل) للاحتراس، وهو نتيجة مترتبة علىٰ ما قبلها.

ونمضي مع السموأل في لاميته فنجده قد ذكر أبياتًا في ظاهرها الفخر بقبيلته، لكن باطنها يحوي التعريض بنظرائهم من غير اليهود، فنجده في البيت السابع والثامن والتاسع يقول:

لَنا جَبَلٌ يَحْتَلُّه مَنْ نُجِيره ... مُنِيفٌ، يَردُّ الطَّرْفَ وهْوَ كَلِيلُ

رَسَا أَصْلُه تَحْتَ الثَّرَىٰ، وسَما بِهِ ... إِلىٰ النَّجْمِ فَرْعٌ لا يُنال طَويل

هو الأَبْلَقُ الفَرْدُ الذي سارَ ذِكْرُهُ ... يَعِزُّ علىٰ مَنْ رَامهُ فيَطُولُ

"فالشاعر في هذه الأبيات يفتخر بحصن أجداده (الأبلق)، فهم يمتلكون جبلاً يقيم فيه كل من يطلب اللجوء إليهم، وهو جبل يرسو أصله تحت الثرىٰ، وترتفع قممه للنجوم؛ وهو بذلك يرد طرف الناظر إليه أو الطامع فيه وهو حسير، وبه قصره أوحصنه الأبلق الذي ذاع صيته بين العرب رواة وشعراء،"[1] والجبل هنا كناية عن العزة والمنعة، وفي قوله: (رسا أصله تحت الثرىٰ...) كناية عن بُعْدِ أصولهم، والتي تضرب بعمق في الجذور، وكناية عن رفعه أنسابهم، فالسموأل في هذه الأبيات يمجد قومه، ويمتدح أصلهم، ويشيد بنسبهم الرفيع، ويعرض بنظرائهم من غير اليهود.

وفي افتتاح البيت السابع بالضمير المتصل (لنا) في قوله: (لَنا جَبَلٌ) بيان واضح لذوبان ذاته أو خصوصيته في العموم الجمعي للقبيلة، فقد ارتقىٰ بذاته إلىٰ علوٍ، وذاب مع قبيلته ونسب إليهم كل المكارم والفضائل.

(١) شرح ديوان الحماسة: المرزوقي: أبو علىٰ أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي: ١ / ١١٤، نشر/ أحمد أمين، وعبد السلام هارون، دارالجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

والسموأل في هذه الأبيات قد تحول إلىٰ سلطة، ومن ثَمَّ تحول الخطاب الحجاجي من كونه في جوهره مجموعة من المعارف الشائعة إلىٰ الخصوص الذاتي، وصار هذا الانحراف البلاغي ملمحاً ذاتياً خاصاً للجنس اليهودي، وبفضله تحول الخطاب الحجاجي من العموم المطلق أو الشائع ؛ والذي يتنافىٰ بطبيعته مع خصوصية التجربة الشعرية إلىٰ الخصوص الذاتي ؛ حيث تميز جنس اليهود.

كما تحقق الترابط الفكري والأسلوبي في القصيدة بفضل فكرة الثنائيات المتناقضة الكائنة في جُل أبيات القصيدة: في المفردات، والتراكيب، والتحولات الأسلوبية، والصور البلاغية، والعلاقات الحجاجية، كما أكدت الألفاظ المتضادة الواردة في النص علىٰ ذلك، مثل: (الكرم ، والبخل)، (الشجاعة، والجبن)، (العزة، والذلة) (الصفاء، والكدر)، (التسامي، والضِّعة)، (الكثرة، والقلة) كما أدت المقابلة مع الطباق دورًا مهماً في تعميق أو تكثيف ثنائية الصراع ؛ حيث يحاول السموأل وقبيلته الاستئثار بكل الفضائل، ونفيها عن الطرف الآخر.فلم يأتِ التوظيف الحجاجي للمفردات والتراكيب علىٰ هذا النحو اعتباطًا، بل أتىٰ مصوراً لانسجام وترابط العلاقات الحجاجية ؛ التي جمعت جميع أجزاء اللامية؛ للتأكيد علىٰ المقصد الرئيس من النص.

كما أجاد السموأل في توظيف علاقة الاقتضاء التي كان لها دور بارز في إظهار الفخر باليهود في الظاهر، والتعريض بمن سواهم، والالتفات أيضًا كان له أثر واضح في التحولات الأسلوبية وتدعيم الحجاج بشكل كبير داخل النص، فقد وجَّه الخطاب وجهة جديدة غاية في البراعة والإبداع؛ حينما التفت السموأل من ضمير(الغائب) في افتتاح القصيدة في قوله:

إِذا المَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِن اللُّؤْمِ عِرْضَهُ فَكُلُّ رِداءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ

وإِنْ هُو لَمْ يَحْمِلْ علىٰ النَّفْسِ ضَـيْمَها فَلَيْسَ إلىٰ حُسْـنِ الثَّناءِ سـبيلُ
وقـائِـلَـةٍ: مـا بـالُ أُسْـــرَةِ عـادِيـا تَـبـارَىٰ، وفِـيـهـمْ قِـلَّـةٌ وخُـمُـولُ

إلىٰ ضمير (المتكلم) في قوله:

ومـا ضَـــرَّنـا أَنَّـا قَـلِـيـلٌ وجَـارُنـا عَـزِيـزٌ، وجـارُ الأَكْـثَـرِيـنَ ذَلِـيـلُ
ومـا قَـلَّ مَـنْ كـانَـتْ بَقـايـاهُ مِثْـلَنـا شَـبـابٌ تَسـامَىٰ لِـلْـعُـلا وَكُـهُـولُ
لَـنـا جَـبَـلٌ يَـحْـتَـلُّـه مَـنْ نُـجِـيـره مُـنِـيـفٌ،يَـردُّ الـطَّـرْفَ وهْـوَ كَـلِـيـلُ
رَسَـا أَصْـلُـه تَحْتَ الثَّرَىٰ، وسَـما بِهِ إِلـىٰ الـنَّـجْـمِ فَـرْعٌ لا يُـنـال طَـويـل

وذلك لمشاركة غيره من أبناء عشيرته هذا الصراع ؛ فالحجة التي يعتمدها في هذا المقام تقوم علىٰ علاقة السببية ؛ وبهذا يفسح المجال لذاته ؛ لتخرج عن ذاتيتها، وتبث سلطتها، نيابة عن أبناء عشيرته، فهو خروج من الخصوص الذاتي الضيق الذي تقيده الأنا دائمًا إلىٰ العموم الشائع؛ حيث الاتساع والامتداد إلىٰ أقصىٰ مدىٰ، وقد عمد السموأل إلىٰ هذا العدول عمداً؛ لكسر الرتابة والملل الذي قد يورثه توالي حركة الضمائر علىٰ وتيرة واحدة، ولجذب انتباه المتلقي لما سيلقىٰ من كلام غاية في الأهمية، لذا كان الالتفات من أهم الوسائل الحجاجية لأمرين:

أولهما: التأكيد علىٰ المقصد الرئيس للنص والمقاصد الثانوية التابعة له.

وثانيهما: إقناع المتلقىٰ، والتأثير عليه ؛ حيث تعزيز الحجج التي تدعم مراد الشاعر.

كما وظف السموأل حجاجية التمثيل في قوله:

وما قَلَّ مَنْ كانَتْ بَقاياهُ مثْلَنا شَبابٌ تَسامَىٰ لِلْعُلا وَكُهُولُ
لَنا جَبَلٌ يَحْتَلُّه مَنْ نُجِيره مُنِيفٌ، يَردُّ الطَّرْفَ وهْوَ كَلِيلُ
رَسَا أَصْلُه تَحْتَ الثَّرَىٰ، وسَما بِهِ إِلىٰ النَّجْمِ فَرْعٌ لا يُنال طَويل

هو الأَبْلَقُ الفَرْدُ الذي سارَ ذِكْرُهُ يَعِزُّ علىٰ مَنْ رَامهُ فيَطُولُ

للتأكيد علىٰ ذوبان كيان الخطاب الحجاجي الذاتي في كيان الخطاب الجمعي العام الممتد للقبيلة كلها، باعتبار أن السموأل هو الصوت الممثل لجنسه من اليهود؛ وقد اتكأ السموأل في هذا علىٰ حجة الاستنتاج، التي تعتمد علىٰ استنتاج مشابهة الحالة الثانية للأولىٰ، وهو القليل الذي تسامىٰ للعلا بهيئة الجبل الراسخ الذي يضرب بعمق تحت الثرىٰ، ويعلو بشموخ إلىٰ العلا، لا ينازعه شيء ولا يضاهيه؛ لأنه فرد يعز علىٰ من رامه.

كما أنه لا يخفي أن هذا التشبيه له من الاتساع في الدلالة ما له ؛ من حيث تعدد وجه الشبه، حيث الأصالة، والرسوخ، والتفرد، والتميز، والشموخ، والملجأ، والمقصد... إلخ، فقد عززت الحجة التمثيلية هذا الوصف، فالعلاقة بين الطرفين تتجلىٰ في كونهما لهما مكانة ومنزلة كبيرة ؛ ومن ثمَّ يكون الأثر الإيجابي لا يمكن إنكاره، فوجودهما له أثر كبير في تعدد أنماط الدلالة، ولا شك أن "التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلىٰ صورته، كساها أبهة، وأكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشبّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها » [1].

ثم استطرد السموأل من الفخر بالشجاعة إلىٰ هجاء أعدائهَ، ثم عاد إلىٰ فخره مرة أخرىٰ في قوله:

وإِنَّا لَقَوْمٌ ما نَرَىٰ القَتْلَ إِذا ما رَأَتْهُ عامِرٌ وَسُلُولُ

(١) أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني: ١١٥، ت محمود محمد شاكر

وقد ذهب بعض النقاد إلىٰ أن هذا الاستطراد أحسن ما سُمِع في الاستطراد وأوضحه(١).

كما استطرد أيضا من الفخر بالشجاعة إلىٰ هجاء أعدائهَ، ثم عاد إلىٰ فخره مرة أخرىٰ، حيث قال:

يُقَرِّبُ حُبُّ المَوْتِ آجالنَا لَنا وتَكْرَهُهُ آجالُهُمْ فتَطُولُ

فهجاؤه لأعدائه جاء سريعًا خاطفًا، وهذا من تمام تمكنه من أدواته، كما لميأت سوق العلل الحجاجية في خطابه الحجاجي عبثًا، بل جاء متناغمًا منسجمًا في ترابط مع جميع أجزاء النص ؛ للتأكيد علىٰ المقصد الرئيس والمقاصد الثانوية، وهو التأكيد علىٰ شجاعة قومه في الحروب، وجبن وخذلان أعدائهم، وقد أدت علاقة الاقتضاء هنا دورًا بارزاً، مفاده أن حبهم للموت اقتضىٰ قِصَرِأعمارهم، بينما كره أعدائهم للموت ؛ اقتضىٰ طول آجالهم.

كما قصد الشاعر في هذه الأبيات أيضًا إلىٰ التدرج في سوق الحجج من خلال تراتب السلالم الحجاجية، فنجد عملية سوق الحجج في هذه الأبيات قد أتىٰ علىٰ شكل متوازٍ من خلال عرض الصورة في معرض المقابلة بالتناقض بين طرفيها ؛ حيث أثبت جميع الخصال الحسنة لقومه، ثم سلبها من أعدائه ؛ وذلك لإقناع المتلقي والتأثيرعليه.

فطريقة سوق الحجج وفق السلالم الحجاجية عبر النمط المتوازي يغلب علىٰ النصوص التي مبناها علىٰ الثنائيات المتناقضة كما في لامية السموأل؛ ولعل السر

(١) ينظر: زهر الآداب وثمر الألباب / الحصرىٰ القيرواني: ٤ / ٢٠٢ ت: د/ صلاح الدين الهوارىٰ، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ط١ ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

في ذلك هو ما أراده السموأل من إظهار الفخر بقومه، والتعريض بنظرائه من غير اليهود، والذي صوره المعادل الموضوعي (المرأة المعيرة).

كما تلازمت علاقة الاقتضاء مع علاقة السببية في قوله: (يُقَرِّبُ حُبُّ المَوْتِ آجالنَا لَنا) فقد ذكر السموأل علة قرب آجالهم ؛ وهي حبهم للموت، بينما وصف أعداءهم من غير اليهود بالجبن والخذلان والهروب من المعارك ؛ لذا تطول آجالهم وذلك واضح في قوله: (وتَكْرَهُهُ آجالُهُمْ فتَطُولُ) وهذا ما يسمىٰ في العلاقات بالتلازم الذهني ؛ كالتلازم بين الشرط وجوابه والسبب والمسبب،والعلة والمعلول، والنظيرين والضدين ؛ وفائدته جعل أجزاء بعضها آخذ بأعناق بعض، فيقوىٰ بذلك الارتباط، ويصير حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء.[1]

كما قصد السموأل إلىٰ التوظيف الحجاجي للمجازالمرسل في قوله:

تَسِيلُ علىٰ حَدِّ الظُّباتِ نُفُوسُنا ولَيْسَتْ علىٰ غَيْرِ الظُّباتِ تَسِيلُ

فنفوسهم لا تسيل، بل دماؤهم هي التي تسيل، كما أحسن توظيف الحجاج الكنائي في قوله: (ولَيْسَتْ علىٰ غَيْرِ الظُّباتِ تَسِيلُ) للتأكيد علىٰ أن دماء قومه لا تسيل إلا علىٰ حد السيوف ؛ لأن الدماء قد تُسال بغير السيوف.

فهذه الأبيات في ظاهرها الفخر بمآثر قومه، لكن في باطنها التعريض بمن سواهم من العرب؛ فهم لا يرون القتل سبة، لكن قبيلتي عامر وسلول – وهما من أكبر القبائل العربية وأشهرها– يرونه سبة، كما أن ساداتهم من اليهود لا يموتون حتف أنوفهم، ولا يضيع لهم حق أو دماء، بينما غيرهم لا يسعون لذلك، كما أن

(١) البرهان في علوم القرآن: بدر الدين الزركشي: ٣٥ ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، ١٩٨٤م.

نفوسهم تُبذل علىٰ حد السيوف، لكن غيرهم يبيعون أنفسهم بثمن بخس، فقومه يتميزون بنقاء عرقهم وسمو جنسهم، بينما خصومهم لا يتميزون بأي شيء من ذلك.

ولم يتوقف الحجاج عند السموأل عبر طريق الثنائيات المتناقضة علىٰ الألفاظ المفردة المتضادة فحسب، بل وظف أنماطًا أخرىٰ من التضاد، كطباق السلب الوارد في قوله:

وإِنَّا لَقَوْمٌ ما نَرَىٰ القَتْلَ سُبَّةً إِذا ما رَأَتْهُ عامِرٌ وَسُلُولُ

وقوله:

تَسِيل علىٰ حَدِّ الظُّباتِ نُفُوسنا ولَيْسَتْ علىٰ غَيْرِ الظُّباتِ تَسِيلُ

وكذلك المقابلات المتعددة المتوالية كما في قوله:

وما ماتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ ولا طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كانَ قَتِيلُ
فَنَحنُ كَماءِ المُزنِ ما في نِصابِنا كَهامٌ وَلا فينا يُعَدُّ بَخيلُ
وَما أُخمِدَت نارٌ لَنا دونَ طارِقٍ وَلا ذَمَّنا في النازِلينَ نَزيلُ

ومن الملاحَظ في هذه الأبيات أن السموأل قد جمعها علىٰ حجة الاشتمال، وهي التي تفيد أن ما يثبته لقبيلته من صفات يتم نفيها عن طريق المقابلة عن غيرهم، ولا شك أن في ذلك تأكيدًا من الشاعر علىٰ تميزهم، وسمو عرقهم كما يدعي الشاعر ويزعم.

ومن الملاحظ أيضًا أن هذه المقابلات قد ختمت بأسلوب النفي كما في قوله: (ولا طُل منا حيث كان قتيلُ)، (ولاْ فينا يعد بخيلُ)، (ولا ذمنا في النازلين نزيل) جريا علىٰ نهجه في التعريض، ونفي كل فضيلة عن غيرهم.

كما برزت حجة التبذير في أكثر من موضع من اللامية، منها قوله:

عَلَونا إِلىٰ خَيرِ الظُهورِ وَحَطَّنا لِوَقتٍ إِلىٰ خَيرِ البُطونِ نُزولُ
فَنَحنُ كَماءِ المُزنِ ما في نِصابِنا كَهامٌ وَلا فينا يُعَدُّ بَخيلُ

فيستمر السموأل في فخره، ويتواصل في عرض حججه؛ ليظل محتفظًا بالمكاسب التي حققها من قبل، ويستطرد ويتمادىٰ في الطرح؛ ليؤكد فكرة تميزهم، وتفردهم، وتساميهم عن سائر الأجناس والأمم.

ولا شك أن السموأل قد أحسن وأجاد في توظيف علاقة التضاد، التي كانت من أبرز العلاقات الحجاجية التي بنىٰ عليها نصه، من أجل إبراز حدة الصراع الدائر بينه وبين معيرته، وقد أدت الضمائر دورًا مهمًا في تعميق تلك الثنائيات المتضادة، خاصة في استخدام الضميرين اللذين يرمزان للأنا والآخر، وذلك واضح في قوله:

يُقَرِّبُ حُبُّ المَوْتِ آجالَنا لَنا وتَكْرَهُهُ آجالُهُمْ فتَطُولُ
وَنُنكِرُ إِن شِئنا عَلىٰ الناسِ قَولَهُم وَلا يُنكِرونَ القَولَ حينَ نَقولُ
سَلي إِن جَهِلتِ الناسَ عَنّا وَعَنهُمُ فَلَيسَ سَواءً عالِمٌ وَجَهولُ

ولا شك أن الحضور الدائم لضمير الجمع (نا) يؤكد علىٰ إصراره علىٰ إعلاء شأن قومه، ورفعة منزلتهم، وسُموِهم علىٰ غيرهم، ومن ثَّم تتأكد فكرة تميزهم وسمو جنسهم علىٰ من سواهم.

وإذا ما اقتربنا من نهاية القصيدة نجد أن السموأل لا يزال يفتخر بقومه، يعدد مفاخرهم ويزهو بهم، ويذكر أيامهم البارزة التي خلدت ذكرهم، لكن من يتأمل فخر في ختام القصيدة يجده مغايرًا للفخر الوارد في مطلعها ؛ فالفخر في الختام هنا خالص لا تشوبه شائبة التعريض بنظرائهم من غير اليهود ؛ فنفس السموأل قد هدأت واطمأنت، بعدما تمكن من دحض حجج المرأة المعيرة، ومن ثَمَّ لم يحتج في ختام لاميته إلىٰ التعريض بنظرائهم من غير اليهود.

ومن يُعمل نظره في ختام القصيدة يدرك أن الترابط السببي قد تحقق بين استهلال اللامية وختامها، وكأن لسان حال السموأل يقول: أما وقد وصلت إلىٰ مقصدي في الرد علىٰ المرأة المعايرة ؛ فلا داعي للتعريض بغير اليهود في الختام، فقد كفيت ووفيت.

وقد تغنىٰ السموأل في ختام القصيدة بأيامهم الغراء ووقائعهم المشهودة، فنراه يقول:

وَأَيّامُنا مَشهورَةٌ في عَدُوِّنا لَها غُرَرٌ مَعلومَةٌ وَحُجولُ

ففي البيت كناية عن شهرة أيامهم ووقائعهم ؛ تلك التي أصبحت معالم بارزة، وإشارات مميزة، يشهدها القاصي والداني، ويستمر السموأل في سوق الحجج التمثيلية سواء أكانت تمثيلا علىٰ سبيل الحقيقة في (التشبيه) أم علىٰ سبيل المجاز في (الاستعارة) ؛ فنجده يسوق (حجة تمثيلية) علىٰ سبيل التشبيه المركب؛ حيث شبه هيئة وقائعهم في الأيام المشهورة، وانتصاراتهم التي أصبحت معالم مُشاهدة بهيئة الأفراس الغُر المحجلة التي لا يُنكِر تميزها أحد، كما لا تخفىٰ علامات تميزها علىٰ أحد، ولا يخفي علىٰ بصير أن هذا التشبيه له من الاتساع في الدلالة ما له؛ من حيث كثرة التفصيلات في وجه الشبه الناتجة عن هذا التركيب. "فقوة التمثيل تكمن في كونه حجة عقلية إقناعية تأثيرية، لا يصل إليه بالتصريح؛ وإنما عن طريق التأويل والاستدلال" (١).

وقد تآزرت العلاقات الحجاجية في هذا الأبيات؛ لتصوير لوحة حجاجية ذات كيانين خطابيين ؛ ذاب فيهما كيان الخطاب الذاتي الفردي في كيان الخطاب

(١) موضع التمثيل من الحجاج في الحديث النبوي الشريف د. زقنون نصيرة:، جامعة السانيا، وهران، ٢٠١٨م، ص (٦٣٣).

الجمعي ؛ من حيث البِنىٰ التركيبية، والدلالية، والبلاغية، وكذا الوحدة الفكرية والشعورية.

كما أجاد السموأل في الجمع والتناغم بين الوسائل البلاغية والعلاقات الحجاجية للتأكيد علىٰ فخره بقومه، الذي تعددت أنماطه في هذه اللامية.

كما تجلت علاقة السببية في قوله:

وَأَسيافُنا في كُلِّ شَرقٍ وَمَغرِبٍ بِها مِن قِراعِ الدارِعينَ فُلولُ

فعلة احتراز أعدائهم ومهابتهم إياهم ؛ كونهم صانعي الدروع، وفي البيت تصوير حجاجي آخر عن طريق توظيف الحجاج الكنائي، حيث الدعوىٰ وفي طياتها برهانها، والبينة مصحوبة بدليلها، فالبيت كناية عن تفردهم في هذه الصنعة حتىٰ فاقوا الجميع، بل وأصبحوا أعلامًا بارزين يخشاهم أعدائهم.

وقد ساق الدليل علىٰ صدق دعواه ؛ في قوله: (بِها مِن قِراعِ الدارِعينَ فُلولُ) وفي قوله: (في كُلِّ شَرقٍ وَمَغرِبٍ) كناية أخرىٰ عن الزيوع والانتشار.

ونمضي مع السموأل إلىٰ نمط آخر من فخره بقومه؛ حيث الشجاعة والفروسية التي أنطقت السيوف، وجعلتها مُعَوَّدَةٌ ألا تخرج من أغمادها ؛ إلا عند استباحة دم قبيلة من جذورها، فنجده يقول:

مُعَوَّدَةٌ أَلّا تُسَلَّ نِصالُها فَتُغمَدَ حتّىٰ يُستَباحَ قَبيلُ

وقد اعتمد السموأل في تصوير ذلك عن طريق الحجاج بالاستعارة المكنية؛ حيث شبه السيف المغمد بالإنسان المستتر بموطنه، وأبقىٰ علىٰ لازمه، وهو التعود أي الرجوع للفعل إذا توفرت دواعيه، وأسبابه، فقد جعل السيوف تتعود ألا تخرج من أغمادها إلا عند استباحة دم قبيلة من جذورها، فهي لا تخرج إلا للأمر الجَلل والسيوف معودة علىٰ ذلك.

وفي البيت كناية عن تمكن السموأل وقبيلته من القتال، وأن الخروج للقتال عندهم أمر جلل له طقوسه الخاصة، كما أن اعتياد سيوفهم علىٰ الخروج للقتال في حالة استباحة دم قبيلة من جذورها لا يتأتىٰ إلا مع كثرة الفعل والتمكن منه ؛ وفي ذلك كناية بديعة زادت من عمق الدلالة الحجاجية واتساعها، وكثرة إيحاءاتها.

كما أجاد السموأل في توظيف الحجاج بالتمثيل، الذي أتىٰ عن طريق الاستعارة التمثيلية التي عززت هذا الوصف ؛ فقد شبه هيئة إبقاء السيوف مستورة في غمدها، مع عدم خروجها إلا في حالة استباحة دم قبيلة من جذورها، بهيئة من اعتاد الستر، وعدم الخروج من موطنه إلا للضرورة القصوىٰ، والعلاقة بين الطرفين تتجلىٰ في كونهما لهما مكانة ومنزلة كبيرة من حيث التعود علىٰ الإبقاء في الموطن المخصص وعدم الخروج ؛ ومن ثَّم يكون الأثر الإيجابي الذي لا يمكن إنكاره، فوجودها كان مؤثراً وعميقًا في تعدد أنماط الدلالة.

وفي ختام مناظرة السموأل مع معيرته نراه يلح ويؤكد فكرة استئثارهم بالعلم وتجهيل الآخرين من خلال حجة السلطة، وذلك واضح جلي في قوله:

سَلي إِن جَهِلتِ الناسَ عَنّا وَعَنهُمُ فَلَيسَ سَواءً عالِمٌ وَجَهولُ

وقد حرص السموأل علىٰ جذب انتباه السامع لما يقوله من خلال توجيهه الأمر(سلي) الذي خرج لغرض مجازي هو الإنكار، وهو تساؤل يسترعي الانتباه، ويستوقف النظر، ويتجلىٰ من هذا البيت شعور السموأل بالثقة البالغة في كونه قد أحسن الرد ووفاه ؛ فهو يخاطب معيرته: إن كنت جاهلة بنا؛ فسلي الناس من نحن؛ حتىٰ تؤمني بحقيقة ما قلت، وهىٰ حقيقة لا ينكرها إلا الجاهل الحاقد، وتقديم خبر ليس علىٰ اسمها في قوله:(فليس سواء عالم وجهول) للتأكيد علىٰ أنهما لا يستويان.

وقد كان السـموأل موفقًا في اصـطفاء ألفاظه وتراكيبه التي يحاجج به معايرته، فقد عبر بـ (إن)التي تفيد الشك في قوله: (إِن جَهِلتِ) ؛ لأنه دلل من قبل علىٰ قوة قبيلته، وذكر أيامهم المشهورة عند الأعداء قبل الأصدقاء، فكيف تجهلها من عيرته بضعف قبيلته، وفيه أيضًا إيجاز بحذف جواب الشرط، والتقدير: (إن جهلت حالنا وحال القبائل) وفي قوله: (إِن جَهِلتِ) إطناب بالاعتراض؛ للاحتراس؛ دفعًا لأي توهم لدىٰ تلك المرأة، التي وصفها بالجهل في نهاية قصيدته.

كما آثر السـموأل تنكير (عالِمٌ) للتعظيم، و(جَهول) للتحقير، وأحسـن أيضًـا عندما عرض الصورة عن طريق المقابلة بين طرفيها، من خلال الجمع بين الثنائيات المتضادة (عالِمٌ – جَهولُ) ؛ حتىٰ تستقر الصورة في الأذهان وتطمئن إليها الأفهام.

تعدد أنماط التحولات الأسلوبية داخل اللامية

باستقراء أنماط التحولات الأسلوبية داخل اللامية – وخاصة التي مثلت المرتكزات الأساسية التي بُنيت عليها البِنَىٰ التركيبية – يتجلىٰ بوضوح تعدد الأنماط الأسلوبية فيها؛ ولعل السر في ذلك يرجع إلىٰ أن اللامية قد بُنِيت علىٰ علاقات حجاجية تتابعية؛ وكانت علىٰ مستويات عدة: الأحداث، والضمائر، والأفعال، والأفكار.

فعلىٰ مستوىٰ الأحداث نجد أنها قد تحولت تحولاً عكسيا، حيث الخروج من مناظرة متكافئة قوامها طرفان إلىٰ أخرىٰ غير متكافئة قوامها طرف واحد، هو الشاعر، بينما المرأة المعيرة (الطرف الآخر) لم تظهر علىٰ مساحة القصيدة سوىٰ في البيتين:

وقائِلَةٍ: ما بالُ أُسْرَةِ عادِيا ... تَبارَىٰ، وفِيهِمْ قِلَّةٌ وخُمُولُ

تُعَيِّرُنا أَنَّا قَلِيلٌ عَدِيدُنا ... فقلتُ لها: إِنَّ الكِرَامَ قَلِيلُ

وقد استدعىٰ هذا التحول كثرة التعبير بالأفعال المثبتة التي كان ظاهرها الافتخار بجنس اليهود، ونسبة كل الفضائل إليهم دون غيرهم، لكن في باطنها التعريض بمن سواهم بانتفاء هذه الصفات عنهم.

كما تجلت دلالة الزمان والضمائر علىٰ مساحة القصيدة كلها، فدلالة الزمان ؛ صورت لحظة التحقير والتقليل من شأنهم، أما دلالة الضمائر فقد تحددت في ضمير الغائب (هي) الطرف الأول، الذي يمثل المرأة المعيرة، والطرف الثاني ضمير الفاعلين (نا) الدال علىٰ الشاعر الذي يمثل قبيلته.

ولما كانت اللامية مبنية علىٰ تنوع حركة الضمائر، فإننا سنجدها قد توزعت في اللامية علىٰ مساحتها كلها، بشكل مكثف، وبدلالات عميقة لا تنفصل في مضمونها عن البِنَىٰ التركيبية، والمقاصدية، وكانت الضمائر

ما بين ضمائر مستترة، وضمائر منفصلة نحو (نحن) وضمائر متصلة وهي التي استحوذت علىٰ جل أبيات القصيدة، نحو: (شئنا – ذمنا– تعيرنا – صفونا– حملنا – علونا – أنَّا – ما ضرنا – لنا – آجالنا – منا – نفوسنا – أيامنا – عدونا – أسيافنا – عنا...إلخ).

وعلىٰ مستوىٰ الألفاظ نجد أن بناء ألفاظ اللامية كان علىٰ شكل ثنائيات متضادة نحو:(تبارىٰ وخمول، شباب وكهول، قليل وكثير، عزيز وذليل، يقرب وتطول،الحب و الكره، الظهور و البطون، عَلَونا ونزول، شرق ومغرب، عالم و جهول)

وقد تعددت صور الطباق الواردة في النص فلم يقتصر السموأل علىٰ طباق الإيجاب فحسب، بل عمد إلىٰ توظيف طباق السلب لتعميق تلك الثنائية، ومن شواهد ذلك قوله:

وإِنَّا لَقَوْمٌ ما نَرَىٰ القَتْلَ سُبَّةً إِذا ما رَأَتْهُ عامِرٌ وَسُلُولُ

تَسِيل علىٰ حَدِّ الظُّباتِ نُفُوسنا ولَيْسَتْ علىٰ غَيْرِ الظُّباتِ تَسِيلُ

كما أدت المقابلة أيضًا دورًا واضحًا في تعميق تلك الثنائية، فالسموأل كان حريصًا علىٰ الاستئثار بكل الفضائل لقومه، ونفيها عن المرأة المعيرة التي مثلت المعادل الموضوعي لكل من هم غير اليهود.

كما أن تضافر وتتابع الحجج علىٰ مستوىٰ الأفكار والمواقف علىٰ هذا النحو لم يجعل النص بنيانًا واحدًا متكامل الأجزاء في التركيب والأسلوب والبلاغة والدلالة فحسب؛ بل نتج عنه ـــــ مع قوة الذات المبدعة، وقدرتها علىٰ تغيير الواقع، وعدم تعطيل وظيفتها ـ ذوبان كيانان خطابيان في بعضهما البعض ؛ كيان الخطاب الذاتي الفردي في كيان الخطاب الجمعي.

الخاتمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام علىٰ خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد، وعلىٰ آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين، وبعد.

فقد أسفرت هذه الدراسة عن جملة من النتائج، كان من أهمها ما يأتى:

- شكلت البلاغة العربية عبر تاريخها الطويل بلاغة النص، ودعت إلىٰ تكاملية العلوم التي أشار إليها سيبويه في كتابه؛ وهي كذلك ما دامت تعالج النصوص من منظور تداولي، وقد نجحت العلاقات الحجاجية داخل اللامية – محل الدراسة– في إذابة كيان الخطاب الذاتي (شديد الخصوصية) في كيان الخطاب الجمعي (شديد العمومية) ؛ عن طريق حجة السلطة التي جعلت من السموأل صوتًا لقبيلته، وقد تجلت هذه العلاقة في كثير من أبيات القصيدة نحو قوله:

وَنُنكِرُ إِن شِئنا عَلىٰ الناسِ قَولَهُم وَلا يُنكِرونَ القَولَ حينَ نَقولُ

وقوله:

وَأَيّامُنا مَشهورَةٌ في عَدُوِّنا لَها غُرَرٌ مَعلومَةٌ وَحُجولُ

وغيرها من الأبيات التي برزت فيها حجة السلطة.

- بُنيت اللامية علىٰ الثنائيات المتضادة بدءًا من مفردات العموم والخصوص، حتىٰ تنوع حركة الضمائر؛ فقد انسحبت علىٰ مساحة اللامية كلها بشكل مكثف، و بدلالات عميقة، لا تنفصل في مضمونها أو معناها عن البِنَىٰ التركيبية، والمقاصدية، والمقامية، معلنة عن خطاب حجاجي متفرد شكلًا ومضومنا.

- أسس السموأل حجاجه في هذه اللامية من خلال ثنائية التناقض (التصوير بالمفارقة)،التي كان من أبرز أدواتها: "الطباق" و"المقابلة" من أجل إبراز

تناقضات الواقع، وإحداث فجوة بين طرفي الصورة، ولفت الانتباه، وإثارة التأمل والاهتمام.

- تآزرت العلاقات الحجاجية في اللامية؛ لتصوير لوحات حجاجية ذات كيانين خطابيين؛ ذاب فيهما كيان الخطاب الذاتي الفردي في كيان الخطاب الجمعي، من حيث البِنىٰ التركيبية، والبلاغية، وكذا الوحدة الشعورية.

- برز تحول الخطاب الحجاجي من العموم الشائع إلىٰ الخصوص الذاتي مبكرا بدءاً من قول السموأل:

وما قَلَّ مَنْ كانَتْ بَقاياهُ شَبابٌ تَسامَىٰ لِلْعُلا وَكُهُولُ

فسرعان ما انتقل خطاب إلىٰ الخصوص، يتحدث عن أفراد قبيلته، يفتخر بهم، ويتباهىٰ بصغيرهم وكبيرهم.

- ازدواج التمثيل مع الحجاج في اللامية أضاف بُعْداً استدلالياً وتأثيرياً وإقناعيا، ذاب فيه خطاب الذاتية الفردية في خطاب العموم الجمعي.

- أحسن السموأل في توظيفه تراتب السلالم الحجاجية بشكل تصاعدي داخل اللامية، وذلك بالانتقال من الحجج العقلية الخالصة التي جعلها توطئة وتمهيدًا للانتقال للحجج التصويرية المجسمة الناطقة بمآثر وفضائل قومه.

- وظَّف السموأل بعض التقنيات الحجاجية كالمبالغة في الوصف، وقد برزت تلك التقنية في مواطن كثيرة من لاميته وخاصة عند حديته عن فخره بقومه وذلك نحو قوله:

وما ماتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ ولا طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كانَ قَتِيلُ

- برع السموأل في حشد الأوصاف التي حاول من خلالها إثبات كل الفضائل لقومه، ونفيها عن غيرهم من غير اليهود، وكانت الوسيلة المستخدمة في ذلك المقابلات المتعددة المتوالية، وقد جمعها علىٰ حجة الاشتمال التي أفادت أن ما

أثبته لقبيلته من صفات تم نفيها عن طريق المقابلة عن غيرهم، ولا شك أن في ذلك تأكيدًا من الشاعر علىٰ تميزهم، وسمو عرقهم كما يدعي الشاعر ويزعم.

كما في قوله:

وما قَلَّ مَنْ كانَتْ بَقاياهُ مثْلَنا ... شَبابٌ تَسامَىٰ لِلْعُلا وَكُهُولُ

وما ماتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ ... ولا طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كانَ قَتِيلُ

فَنَحنُ كَماءِ المُزنِ ما في نِصابِنا ... كَهامٌ وَلا فينا يُعَدُّ بَخيلُ

وَما أُخمِدَت نارٌ لَنا دونَ طارِقٍ ... وَلا ذَمَّنا في النازِلينَ نَزيلُ

- من يتأمل البنىٰ التركيبية داخل اللامية يلحظ شيوع الأسلوب الخبري الابتدائي الخالي من التأكيد في معرض حجج السموأل التي ساقها للتأكيد علىٰ مناقب قومه وتميزهم وتساميهم عن سائر الأجناس، مثل قوله: (نحن كماء المزن - وأيامنا معلومة - وأسيافنا في كل شرق...إلخ) وذلك لأنه كان يفترض في المخاطَب الجهل وليس الإنكار، وذلك يلقىٰ بالضوء علىٰ العلاقة التي كانت تجمع بين الجنس اليهودي والعرب في تلك الآونة، فهي ليست علاقة تصادمية بأية حال.

- **التوصيات والمقترحات:**

- عدم قولبة النص ؛ وذلك من خلال الاهتمام بالدراسات التطبيقية (التداولية) أو الدراسات التي تهتم بالمعنىٰ في السياقات الفعلية للكلام ؛ لأنها دراسات خرجت من خصوصية العلم الواحد إلىٰ عمومية جميع العلوم ؛ بحيث أصبح بمقدور كل متخصص ؛ أن يتناولها من وجهة نظر تخصصه البحت.

- الاهتمام بالبحث البلاغي التطبيقي المنطلق من الثوابت التراثية ؛ في حقوله المختلفة، واستحداث أدوات للمعالجة البلاغية والتناول تتواكب ومقتضيات العصر.

- ضــرورة العمل البحثي في الكشــف عن العلاقات الحجاجية المضــمرة في النصــوص، ومحاولة قراءتها، وإيجاد الخيط الناظم بينها وبين العلاقات الحجاجية الظاهرة، مع بيان نوع العلاقة وسر المزاوجة بينهما.

- المصادر والمراجع

١- **أسرار البلاغة**: عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة.

٢- **الأغاني**: أبو الفرج الأصبهاني، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأوليك ١٤١٥ هـ.

٣- **الإمبراطورية الخطابية صناعة الخطابة واالحجاج**: شاييم بيرلمان وأولبريخت تيتكا ترجمة د الحسين بنو هاشم، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٢٢م.

٤- **البرهان في علوم القرآن**: بدر الدين الزركشي، ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، ١٩٨٤م.

٥- **بلاغة الإقناع في المناظرة**: د/ عبد اللطيف عادل، منشورات ضفاف، الطبعة الأولىٰ: ١٤٣٤هـ – ٢٠١٣م، بيروت، لبنان.

٦- **البيان والتبيين**: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ت: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة السابعة: ١٩٩٨م.

٧- **تاريخ الأدب العربي**: كارل بروكلمان، ترجمة عبد الحليم النجار، دار المعارف القاهرة، الطبعة الخامسة ١٩٨٣م.

٨- **تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام**: إسرائيل ولفنسون، مطبعة الاعتماد، مصر، ١٣٤٥هـ – ١٩٢٧م.

٩- **تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن**: ابن أبي الإصبع العدواني، نشر المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر.

١٠- **الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية**: د/ عبد الله صولة، جامعة منوبة، كلية الآداب، تونس، الطبعة الاولىٰ ٢٠٠١م.

١١- **الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه**: د/ سامية الدريدي، عالم الكتاب الحديث، الأردن، الطبعة الثانية ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

١٢- **حلية المحاضر في صناعة الشعر لأبي علي الحاتمي**: ت: د/ جعفر الكتاني، دار الرشيد، العراق ١٩٧٩م.

١٣- **ديوان السموأل**: ت/ عيسىٰ سابا، مطبعة دار بيروت، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.

١٤- **ديوان السموأل**: صنعة أبي عبد الله نفطويه، بتحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين مطبعة بغداد ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م

١٥- زهر **الآداب وثمر الألباب**: الحصري القيرواني، ت: د/ صلاح الدين الهوارىٰ، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ط١ ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

١٦- **شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك**: ابن عقيل، دار الفكر بيروت، الطبعة العاشرة.

١٧- **شرح ألفية ابن مالك**: ابن الناظم: ت: د عبد الحميد السيد، دار الجيل، بيروت

١٨- **شرح ديوان الحماسة**: أبو علىٰ أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

١٩- **شرح شواهد المغني**: جلال الدين السيوطي: ت: محمد محمود الشنقيطي، مكتبة الحياة بيروت.

٢٠- **شعراء اليهود في الجاهلية وصدر الإسلام**: د/ أحمد محمد النجار، دار النهضة العربية، بيروت، سنة ١٩٧٨م.

٢١- **صحيح البخاري (الجامع الصحيح المسند المختصر من حديث رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه)** محمد بن إسماعيل البخاري، دار ابن كثير دمشق الطبعة الأولىٰ ١٤٣٢هـ - ٢٠٠٢م.

٢٢- **الصناعتين:** أبو هلال العسكري، ت: علي محمد البجاوي، و محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية، بيروت.

٢٣- **طبقات فحول الشعراء:** محمد بن سلام الجمحي، قرأه وشرحه: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة.

٢٤- **العمدة في محاسن الشعر وآدابه:** ابن رشيق القيرواني: ت: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، الطبعة: الخامسة، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م.

٢٥- **لسان العرب:** جمال الدين محمد بن مكرم أبو الفضل بن منظور، دار صادر بيروت الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٠م

٢٦- **اللغة والحجاج:** د/ أبو بكر العزاوي، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ٢٠٠٩م

٢٧- **مجمع الامثال:** أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني، ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية بيروت.

٢٨- **معجم البلدان:** ياقوت الحموي، ت: فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٩- **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب:** ابن هشام الأنصاري، ت: د/ مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، بيروت، الطبعة الرابعة

٣٠- **مقاييس اللغة:** ابن فارس، ت: عبد السلام هارون، الطبعة الأولىٰ دار الجيل بيروت ١٩٩١م.

٣١- **موضـــع التمثيل من الحجاج في الحديث النبوي الشـــريف** د. زقنون نصيرة، جامعة السانيا، وهران، ٢٠١٨م.

٣٢- **النص الشـــعري وآليات القراءة**: د فوزي عيســى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٦م

٣٣- **النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية اللسانية والمنطقية** محمد طروس، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى: ٢٠٠٥م.